

# المكتبة الثقافية

٢٣

الدكتور أحمد عبد البردي

وزارة  
الثقافة والإعلام  
الإدارة العامة للثقافة

١١٥ أكتوبر ١٩٦٠



المكتبة الثقافية

٢٣

محمد العزيز زهرهم  
رئيس قسم اللغة العربية  
بالمسرح  
الاسكندرية

صالح الدين الأيوبي

بين شعراء عصره وكتابه

الدكتور أحمد أحمد بدوي

وزارة  
الثقافة والإعلام  
الإدارة العامة للثقافة

١٥ أكتوبر ١٩٦٠

الناشر



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

صلاح الدين الأيوبي من كبار الأبطال الذين لهم ذكر خالد في تاريخ الإسلام . يقتزن اسمه العظيم بالحروب الصليبية ، وباسترداد فلسطين وبيت المقدس من الفرنج الذين اغتصبوا تلك الديار حيناً من الزمن طويلاً .

وقد كان هذا البطل معقد آمال المسلمين في عصره ، رأوا فيه القائد الملمهم القدير على استرداد الوطن السليب من يد أعدائه الطغاة الظالمين .

ورأى قبل أن يهاجم عدوه أن يعتمد على وحدة يشد بها ساعده ، إيماناً منه بأن تلك الوحدة هي الدامة القوية لتحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ؛ فوحد سوريا ومصر تحت رايته وأقبل بهذا الوطن الموحد على العدو، فشنت جموعه وحطم قواه . كانت شخصية هذا البطل ماثرة إعجاب معاصريه ، وموطن

حبهم وتقديرهم ، والقارئ لتاريخ الرجل يلمس مدى هذا الإعجاب والحب والتقدير .

ورأى فيه الشعراء والكتاب مثلاً من الأمثلة العليا للإنسانية فسجلوا في آدابهم سماته الخلقية ، وجهاده المتصل ، ووفدوا عليه يسمعونهم ، أو يرسلون إليه بهذا الشعر إن لم يستطيعوا أن يقدوا إليه ، فكان من ذلك مقدار ضخيم من الأدب : شعره ونثره ، بطله صلاح الدين .

وقد أردت أن أدرس هذا الأدب ، لأرى كيف صور ذلك البطل ، موازنا بين الصور كلما استطعت ، واقفاً عند الخلجات النفسية التي تنبض بها أبيات الشعر ، وتتحدث عن آمال الشعب وأمانيه ، مقدما بين يدي ذلك دراسة تاريخية موجزة لصلاح الدين ، ليمت بذلك رسم حياته من الناحية التاريخية ، وساع صداها في الشعر والنثر معاً .

والله يهدي إلى سواء السبيل

# حياة مجيدة

- ١ -

الحياة السياسية بمصر في أواخر العصر الفاطمي قد  
 نالها الفساد والضعف ؛ لتنافس الوزراء في الاستئثار  
 بالحكم ، والانفراد بالسلطان ؛ وزادهم شراة في التطلع إلى  
 كرسى الوزارة والتمسك به أن الخليفة يومئذ لم يكن له من  
 الأمر من شيء ، لصغر سنه حيناً ، وضعفه حيناً آخر .

وكان آخر من جلس على عرش الخلافة الفاطمية طفلاً  
 لم يبلغ سنّ الرشيد لقبّ بالعاقد لدين الله ، اختاره الوزير طلائع  
 ابن رُزَيْك ، ليكون أداة في يده ، لا حول له ولا قوة ،  
 وثقلت وطأة الوزير على القصر ، فدبرت الأسرة المالكة  
 له مكيدة راح ضحيتها ، فمات جريحاً بعد نحو عام من ولاية  
 العاقد في رجب سنة ٥٥٦ هـ .

ولم يكد يتولّى ابنه : رُزَيْك الوزارة للعاقد ، حتى حدثت  
 النفرة بينه وبين والى الصعيد شاور السعدى الذى قلب لابن  
 مولاه ظهر الحن ، وأقبل إلى القاهرة في جمع حاشد فرّ أمامه

رمزيك ، ولكنه لم ينج ، بل قتله « طي بن شاور » ، وخرّبت دور بني رزيك ، وأخذت أموالهم .

واستقبل الشعب قتل « رزيك » بنفور وألم ؛ فإن المدة التي قضاها وزيراً وهي عام وبعض عام حبّبت الناس فيه ، إذ أعفاهم من ضرائب كانت باقية عليهم ، ولذلك خذلت القاهرة شاور عندما خرج عليه ضرغام في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ، وأخرج شاور من القاهرة ، وقُتِلَ ولده طي ، وتولى ضرغام وزارة العاضد .

التجأ شاور إلى نور الدين محمود صاحب الشام ، وطلب منه المعونة على أن يقدم إليه ثلث إيراد مصر سنوياً ، ويكون « شيركوه » قائد جيش نور الدين مقيماً بعساكره في مصر ، وأن يتصرف « شاور » نفسه بأمر « نور الدين » ؛ فبقي أمير الشام يقدم رجلاً ويؤخر أخرى : « فتارة يحمله رعاية قصد شاور له ، ورغبته في التقوى على الفرنج ؛ وتارة يمنعه خطر الطريق وأنّ الفرنج فيه ، وخوفه من أن شاور لا يفي له إن استقرّ له الأمر في مصر . » وأخيراً تغلب جانب الأمل في نفسه ؛ فجهّز جيشاً من رجال أقوياء ممتازين جعل قيادتهم « لأسد الدين شيركوه » ، ومعه ابن أخيه « صلاح الدين » ، وجدّ الركب



فى المسير إلى مصر. وعند القاهرة تمت هزيمة «خرغام» وقتله.  
 عاد «شاور» إلى الوزارة ، وقرّر رأيه على أن ينفرد بمصر ،  
 ويبعد عنها نور الدين ، فأرسل إلى شيركوه يأمره بالعودة إلى  
 الشام ، فأبى ، وطلب منه أن ينفذ ما اتفق عليه هو ونور الدين ،  
 فلم يحبه شاور ، وفكر فى الاستنجاد بالفرنج ، فأرسل إليهم  
 يخوفهم من نور الدين إن تم له توحيد مصر والشام تحت رايته ،  
 وكانوا على يقين من الهلكة إن تم لنور الدين ذلك ؛ فقد ذاقوا  
 منه الأمرين وليس تحت يده سوى موارد «سورية» وحدها ؛  
 فكيف إذا ضم إلى ذلك موارد مصر وثروتها ، فلم يترددوا  
 فى إجابته ، وأرسلوا جيشاً لجبا إلى مصر ، حاصر هو وجيش  
 «شاور» «أسد الدين شيركوه» ، وانهى الأمر بصلح يعود  
 به جيشا الفرنج وأسد الدين إلى الشام ؛ وهكذا أفلت «شاور»  
 من «نور الدين» والفرنج معاً فى ذى الحجة سنة ٥٥٩ هـ .  
 ولكن لم يغب عن خاطر الفريقين أهمية مصر ، وقيمة ثروتها ،  
 وعظم مكانتها ، فحاول أن يضمها كل إلى بلاده ، فجاء إلى مصر  
 جيش نور الدين مرة ، وجيش الفرنج أخرى ، وعاد الجيشان  
 من حيث أتيا ؛ ولكن الفرنج طلبوا من «شاور» أن تكون  
 لهم حامية بالقاهرة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، حتى

لا يستطيع نور الدين أن يرسل جنده إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر في كل سنة مائة ألف دينار . وبذلك نجح الفرنج في وضع يدهم على مصر والاستعانة بأموالها ، وذلك بفضل « شاور » وسوء تدبيره .

ظلّ الفرنج أكثر من عام في مصر ، ينالون المصريين بالأذى ، ويتدخلون في شئون الإدارة ، كلما بدا لهم ، وطال منهم العسف والظلم ، ففكروا في الاستيلاء على مصر استيلاء كاملا ، وأرسلوا إلى ملك بيت المقدس : أمرى Amalric يستدعونه ؛ ليلكها ، وهونوا عليه أمرها ، فبعد تردد قليل أقبل على مصر بجيش ضخم نازل مدينة « بلبيس » في مستهل صفر سنة ٥٦٤ هـ ، واستولى عليها بالسيف ، ونهبها ، وأثنى فيها قتلا وأسرا ، ثم سار إلى القاهرة ، وقد سبقه إليها ما نشره من الرعب ، وما بثه من الدمار ؛ وهنا لم يجد العاضد بدامن أن يرسل إلى « نور الدين » يستنجد به ، ويستحنه على القدوم ؛ لإنقاذ مصر من الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نساءي من قصرى يستغثن بك ، لتنقذهن من الفرنج ، وانضم الناس إلى القاهرة ، ونادى « شاور » ألا يقيم أحد بالفسطاط ، فانتقل منها الناس ، وتركوا أموالهم

وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم ، ونزلوا بالقاهرة في المساجد  
والحمامات ، والأزقة ، وعلى الطرقات ؛ وبعث « شاور »  
إلى الفسطاط بعشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف  
مشعل نار ، وفرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق  
إلى السماء ، وصار منظرًا مهولاً ، واستمرت النار تأتي على  
مساكن مصر أربعة وخمسين يوماً ، وحارب ملك الفرنج  
القاهريين الذين استماتوا في الدفاع عن بلدهم ؛ فطلب الفرنج  
الصلح على مال يأخذونه ، وآبوا راجعين إلى بلادهم ، بينما كان  
« أسد الدين شيركوه » يبحث الخطأ إلى مصر ، حتى وصل  
إلى القاهرة بعد خروج الفرنج ، فسر به « العاضد » وخلع  
عليه ، بينما أراد « شاور » أن يتخلص منه كسابق عهده ،  
ولكن الأمر انتهى بقتل « شاور » في ١٧ من ربيع الآخر  
سنة ٥٦٤ هـ ، وبعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين  
شيركوه الذي مات بغتة بعد نحو شهرين من ولايته في يوم  
السبت ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، وتولى الوزارة بعده  
ابن أخيه صلاح الدين ، ولقب بالملك الناصر .

## - ٢ -

وضع صلاح الدين نصب عينيه منذ تولى وزارة مصر أن يكسب حب الجمهور ، وأن ينال ولاء الجيش ؛ ليتخذها العدة فيما يهدف إليه من كبار الآمال ؛ فقد قال ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله إلى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ؛ لأنه أوقع ذلك في نفسى » . وليس بغريب أن يمر هذا الحاطر بقلب صلاح الدين ، فالدى مصر من الرجال والمال جدير أن يشير مثل ذلك .

وغازى الفرنج أن تقلت مصر من أيديهم ، وأن يقوى بها نور الدين ، فيصبخوا محصورين بين قوته في الشمال وقوته في الجنوب ، فأجمعوا أمرهم على مهاجمة دمياط ؛ ليتخذوها قاعدة يهاجمون مصر منها ، فاجتمعوا عليها ، وحاصروها ، وضيقوا على من بها ، فوقف صلاح الدين جهوده على إيقادها ، فأرسل إليها كل جنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر ، وأرسل إلى نور الدين يستعين به ، فأمدته بالجند يتلو بعضها بعضاً ، وخرج هو نفسه إلى بلاد الفرنج يغير أياها ؛ فلما رأى الفرنج

تتابع الجند ، وقوة الدفاع ، ومهاجمة بلادهم في الشام ، رحلوا عن دمياط ، بعد أن أقاموا عندها خمسين يوما ، وقد نهبت آلاتهم ، وأحرقت مجانيقهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وقوى مركز صلاح الدين بهذا النصر ، وظهر أمام المصريين بمظهر القدير على حماية البلاد . ولم يكتف بهذا بل أخذ يتجهز ، لا ليقف موقف المدافع ، بل موقف المهاجم لأعدائه ، ففي جمادى الآخرة سنة ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين إلى الشام ، فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى إلى أيلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، وساعده الأسطول في البحر ، فافتتحها ، وقتل من فيها من الفرنج ، وملأها بالرجال والعدد ، وكان على الحجاز منها خطر عظيم ، وعاد صلاح الدين إلى مصر منتصراً .

### القضاء على الخطوة الفاطمية :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، في مطاع سنة ٥٦٧ هـ ، ولم يكن في ذلك مفاجأة للمصريين ، بل كانوا يتوقعونه منذ استولى « شيركوه » على الوزارة في مصر ، فقد كان سنياً يدين بالولاء للأمير السني نور الدين الذي كان يدين لبغداد

بالصلة الروحية ، وساعد على إعدادهم لهذا التغيير ما بدأ به صلاح الدين من عزل القضاة الشيعيين وإقامة قضاة سنيين في جميع البلاد ، وبدأ هو وبعض أفراد أسرته بإنشاء المدارس للسنين . وأكبر ظنى أن أسماء الخلفاء الفاطميين في هذه العهود الأخيرة ما كانت لتثير في نفوس سامعيها معنى سوى الإشفاق على شخصيات هزيلة ليس لها حول ولا قوة ؛ فلم يجد المصريون معنى للاحتفاظ بأسماء هذه الشخصيات ، ولا سيما أن صلاح الدين قد كسب القلوب بشجاعته وعدله وحسن تديره في دفع العدو عن البلاد ، وقد كان ذلك أكبر ما تحتاج إليه الأمة المهتدة بالعدو في تلك العصور ، ومن أجل هذا لم يبد الشعب رغبة في إعادة هذه الدولة ، وكل ما بذل من محاولات لإعادتها كان من جانب طائفة طامعة في فوائد مادية ، ولم يستجب الشعب لهذه المحاولات .

وأخذت الظروف تهبط لصلاح الدين توحيد مصر والشام تحت رايته ، فقد مات نور الدين في شوال سنة ٥٦٩ هـ ، وبذلك أمن صلاح الدين أن يكون لأحد سلطان فعلي عليه ، وصار هو الحاكم الحقيقي لمصر وما فتحه من بلاد المغرب واليمن ، وارتقى على عرش دمشق الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وكانت سنة

يومئذ إحدى عشرة سنة ، فأثار صغر سن الملك أطماع الأمراء ،  
ورأى صلاح الدين أن يوقف هذه الأطماع ، ولعل صلاح الدين  
كان يرمى إلى أن يصبح الوصى على العرش ؛ فتتحد البلاد كلها  
تحت سلطانه الفعلي ، ويقوم بتنفيذ برنامج في طرد الصليبيين ،  
فعزم صلاح الدين على قصد الشام ، ولاسيما أن الفرنج طمعوا  
في البلاد بعد وفاة نور الدين . ولكن أسرة الصالح إسماعيل  
أحست بالخطر الذي يهددها من ناحية صلاح الدين ، فإذ قدم  
إلى الشام حتى ترك الصالح دمشق ومضى إلى حلب ، ودخل  
صلاح الدين دمشق في أول ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، ودارت  
بينه وبين أسرة الصالح عدة وقائع انتهت بصلح بينه وبينهم على  
أن يكون له ما يده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها . وظل  
صلاح الدين يعمل على توحيد الشام وبلاد الجزيرة وديار بكر ،  
حتى تم له ما أراد ، بعد موت الصالح إسماعيل سنة ٥٧٧ هـ ، وعقد  
الصلح بينه وبين صاحب الموصل سنة ٥٨١ هـ على أن يخطب  
لصلاح الدين على منابر يلاذه ، ويضرب اسمه على السكة ، وأن  
يسرع إليه بجيشه إذا طلبه صلاح الدين إلى ميدان القتال ، فلم  
يُعُد في تلك الرقعة من الأرض من هو غير خاضع لصلاح الدين ،  
كما أن أخاه سيف الإسلام فتح له بلاد الحجاز ، وضرب الدراهم

باسم صلاح الدين وهكذا اتحد قسم كبير من العالم العربي تحت لواء بطل يستطيع أن يقوده إلى الظفر والنصر . اتحدت مصر والشام والموصل وديار الجزيرة والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب ، ووضعت مآتملكه من الإمكانيات ليحقق بها صلاح الدين ما كان يرنو إلى تحقيقه الماسمون يومئذ من تحرير فلسطين من يدى مغتصبها .

ولم يقصر صلاح الدين ، فقد أرسل إلى جميع أجزاء إمبراطوريته يستفز الناس لقتال الفرنج ، يحجبهم في الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له ، فأقبلت الجيوش من كل حذب ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند « حطين » ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلها منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ، ومضوا بين أسير وقتيل .

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط في يده ، الواحدة إثر الأخرى ، حتى إذا سقطت « عسقلان » والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنأ رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين



يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ؛ وقد منح  
السلطان للفرنج المدينين - إذا شاءوا - أن يعيشوا رعية له ،  
أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين  
يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنائير ، وكل امرأة خمسة ،  
وكل طفل ديناراً ؛ فإذا لم يستطع واحد أن يدفع فهو أسير .  
غير أن السلطان لم ينفذ ذلك حرفياً ؛ فقد دفع هو نفسه فدية  
عشرة آلاف ، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف ، بينما  
مضى عدة آلاف بدون فداء . وقد حمل الناس والكهنة ذخائرهم  
من غير أن يتعرضوا لأقل أذى ، بل قدمت الدواب لكثير من  
الذين لا يجردون ما يركبون .

لقد كانت إنسانية صلاح الدين على النقيض تماماً من وحشية  
أوائك الذين فتحوا القدس من يد المسلمين ، ومن قسوة أمراء  
الصليبيين ، فإن كثيراً ممن تركوا بيت المقدس مضوا إلى أنطاكية  
غير أن أميرها « ييمند » Bohemond طردهم ، وأبى أن يقبلهم ،  
كما أغلق صاحب طرابلس أبواب مدينته في وجوههم ؛ فاضوا  
إلى بلاد الإسلام حيث استقبلوا هناك أحسن استقبال .

أصلح صلاح الدين ما تخرب من المدينة ، ورمم ما تهدم من  
المساجد والمدارس ، وحكم المدينة حكماً يسوده العقل والحرية ،

على العكس تماما من حكم الصليبيين الجائر .  
ومضى صلاح الدين من القدس إلى صور، ولكنه لم يفتحها،  
فقد تجمع فيها الصليبيون من كل فج ، وأبى قائدها أن يسلمها .  
وهنا يذكر المؤرخون خطأ صلاح الدين حينما سمح بهذا  
التجمع في تلك المدينة ، ليتخذوها موطئ قدم لهم .  
ترك صلاح الدين صور ، ومضى إلى شاطئ البحر ؛  
فأخضع ما بأيدي الصليبيين من مدنه ، ولم يمض عام ٥٨٤ هـ حتى  
كانت صور هي الخطر الوحيد الذي يهدد صلاح الدين .

— ٣ —

كانت انتصارات صلاح الدين وسقوط بيت المقدس سببا  
في قيام حرب صليبية أخرى ؛ فقد ثارت ثائرة أوروبا ، وبذل  
رجال الدين كل جهد ، ليوقظوا غضب الجماهير ، وليشركوا  
ملوك أوروبا وأمراءها في الحرب ، وأرسل صاحب « صور »  
صورة القدس في ورقة ، وصور فيها صورة « كنيسة القيامة »  
التي يحجون إليها ، ويعظمون شأنها ، وفيها قبة قبر المسيح في  
حالة مهينة ، وأبدى هذه الصورة في الأسواق والجامع ، وحملها  
القسس ورءوسهم مكشوفة ؛ وقد كللت هذه الجهود بالنجاح ،

إذ اشترك في الحملة الملوك الثلاثة أعظم ملوك أوروبا ، وهم :  
«فردريك بارباروس» إمبراطور ألمانيا، «وفيليب أوغسطس»  
ملك فرنسا ، و «ريتشارد» قلب الأسد ملك إنجلترا .

أقبل الصليبيون من كل مكان ، والتأم شملهم في صور ، وقر  
رأيهم على مهاجمة «عكا» ؛ لحصانة موقعها ، ولأن الطريق إليها  
شاطئ البحر حيث تحميم سفنهم ، وكان البحر أعظم مساعد  
لهم ، يحمل إليهم المواد الحربية والمؤن والرجال . وقد وصلوا  
أمام «عكا» في ١٥ من رجب سنة ٥٨٥ هـ ، ووضعوا عليها الحصار .  
عندما سمع صلاح الدين بحركة الفرنج جمع أمراءه للاستشارة ،  
وكان رأيه أن يهاجمهم في الطريق قبل أن يصلوا إلى «عكا» ،  
ولكر أمراءه أقنعوه بأن الخير في أن تدور المعركة أمام «عكا» .  
وعندما ذهب صلاح الدين إلى المدينة وجد الفرنج قد أحاطوا  
بها ، ومنعوا كل اتصال معها ، فعسكر صلاح الدين في مواجهتهم .  
ويقول المؤرخون : لو أن صلاح الدين عمل تبعاً لرأيه الخاص ،  
وهاجم الصليبيين قبل أن يحاصروا المدينة لأنقذها ، ولكن  
تلك إرادة الله .

أقبل على صلاح الدين بعض المدد ، بينما كانت الإمدادات  
تتري على الصليبيين من البحر . وفي أول شعبان دارت معركة

زحزحت الصليبيين عن أماكنهم ، واستطاع المسلمون أن يتصلوا  
«بعكا» ، فغيروا حاميتهما ، وأمدوها بالمتونة ، وكلفوا الصليبيين  
كثيرا من القتلى ، فتراجع هؤلاء خلف خيامهم .

كانت قوى صلاح الدين مبعثرة في البلاد ، فكان جيش  
يراقب يومئذ أمير «أنطاكية» ، وآخر مقيم في «الرها» مواجه  
لطرابلس للدفاع عن الحدود ، وثالث يراقب «صور» ورابع  
في دمياط والإسكندرية ؛ ليحتاط ضد الصليبيين القادمين من  
البحر ؛ ولذلك كان جيش السلطان أقل عددا من جيش الصليبيين .  
ولقد طمع الفرنجة في صلاح الدين ، وأرادوا نزله قبل أن تصل  
إليه أمداد أخرى ، فهاجموه في معركة فقدوا فيها عشرة آلاف  
رجل ، وجمع صلاح الدين أمراءه وأرباب مشورته ، وأمرهم  
بالإصغاء إلى كلامه ، ثم قال : «باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة  
على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل  
في بلدنا ، وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر  
عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولا بد  
من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأتمتعون  
أن هذه عساكرنا ، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك  
العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ، إن بقي وطال أمره إلى

أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ؛ والرأى كل الرأى عندى  
مناجزتهم ؛ فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك » ؛ فأخذ المجلس  
يقلب الأمر على وجوهه ، وقر الرأى على أن يبقى العسكر أيا ما ،  
حتى يستجم من حمل السلاح فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على  
نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوى  
لاتؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق  
الحيل ، والحيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها  
ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها ، ويصل الملك  
العادل ، ويشارك فى الرأى والعمل ، ويعود من شدة من العساكر ،  
واتفق الجمع على ذلك ، ورأوه مصلحة . وكان ذلك فى أواخر  
شعبان سنة ٥٨٥ هـ .

وأما الفرنج فقد استردوا هدوءهم ، وأعادوا حصار « عكا »  
وحفروا خندقا حول معسكرهم ، ليحموا أنفسهم ضد هجمات  
صلاح الدين ، وأقاموا حائطا يحتمون خلفه إذا هزموا .

ومر عام ٥٨٦ هـ ، و« عكا » محاصرة ، ولم يستطع جيش  
الصليبيين دخول المدينة ، ولم يوقع جيش صلاح الدين بهم معركة  
حاسمة تضطرهم إلى رفع الحصار عن المدينة .

ووردت الأخبار بمسير إمبراطور ألمانيا بجيش لجب ؛ فجمع

صلاح الدين امرأ دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ،  
فاتفق الرأي على ان يسير بعض العسكر إلى البلاد المتاخمة لطريق  
عسكر العدو ، وأن يقيم باقى العسكر أمام جيش الصليبيين  
المحاصر « لعكا » .

ولما علم الصليبيون أن العساكر قد تفرقت لمقابلة إمبراطور  
الألمان ، أجمعوا أمرهم على لقاء صلاح الدين ، فدارت معركة  
رهيبة فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، امتلأ فيها ميدان  
القتال بقتلاهم وجرحاهم ، نحمدت جبرتهم ، ولانت عريكتهم ،  
وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم  
وهم على هذه الحال من الملح والجزع ، فاتفق أنه وصل من  
الغد كتاب من حلب ، يخبر بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه  
من الموت والقتل والأسر ، وما صار إليه أمرهم من القلة والذلة ،  
واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من  
بإزائهم . ولكن لم يكدر ينقضى يومان حتى وصلت إلى الفرنج  
أمداد ضخمة من المال والرجال تحت قيادة « الكندهرى »  
Count Henry ، وأخبرهم أن الأمداد واصله إليهم يتلو بعضها  
بعضاً ، ووصلهم كتاب من البابا يأمرهم بملازمة ما هم بصدد ،  
ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم

برأ وبجرأ ، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم ، فازدادوا قوة وطمعاً . ولما تثابت الأمداد عزموا على لقاء صلاح الدين ؛ ولكنهم ما كادوا يخرجون من خنادقهم ، ويقابلون جيش صلاح الدين وكان على تمام الأهبة للقائهم حتى فضلوا العودة إلى تحصيناتهم ؛ ليعتصموا بها ، ولو أن المعركة دارت ، كما كان المسلمون يريدون ، وكان صلاح الدين بارئاً معافى لكانت هي المعركة الفاصلة .

ولقد أظهر أهل « عكا » كثيراً من ضروب الشجاعة والصبر طول مدة الحصار ، ودافعوا عن بلدهم دفاع الأبطال ، وأبادوا ما أعده الفرنج لمهاجمتهم من آلات القتال : عمل الفرنج ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدموها نحو مدينة « عكا » ، وزحفوا بها ، فأشرفت على السور ، وظل القتال بين الصليبيين وأهل « عكا » ثمانية أيام متتابعة ، تقدم بعدها شاب له خبرة بالكيما ، وألقى على هذه الأبراج مواد جعلت النار تضطرم فيها ، وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله ، وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبذل له مكافأة جسيمة ،

فأبى الرجل أن يأخذ شيئاً ، وقال : إنما عملته لله تعالى ،  
ولا أريد الجزاء إلا منه .

واتخذ الصليبيون « من الآلات العجيبة والصنائع الذرية  
ما هال الناظر إليه ... فأحدثوا آله عظيمة تسمى : دبابة ، يدخل  
تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من  
تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح  
بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهى  
تسمى : كبشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ؛ لأنه يجرحها  
خلق عظيم ، فتهدم بتكرار نطحها . وآلة أخرى ، وهى قبو  
فيه رجال السحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة  
التي يجرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ،  
وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهى تسمى : سنورا . وأعدوا فى  
البحر بطسة<sup>(١)</sup> هائلة ، وضعوا فيها برجا بمنحروطوم إذا أرادوا  
قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا إلى المكان  
الذى ينقلب عليه ، تسمى عليه المقاتلة<sup>(٢)</sup> .

وكان صلاح الدين ، برغم الحصار ، يرسل الميرة والذخائر

(١) البطسة : السفينة الكبيرة .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٢٦ .



إلى « عكا » بطريق البحر ، وكثيراً ما اعترض الفرنج سبيل  
سفنه الداخلة إلى الميناء .

وما إن أقبل الربيع سنة ٥٨٦ هـ حتى وصلت أمداد إلى  
الفرنج في البحر ، وعلى رأس بعضها الملك فيليب ملك فرنسا ،  
والملك ريتشارد ملك إنجلترا ، ويقول عنه ابن شداد<sup>(١)</sup> مؤرخ  
هذه المعركة ومشاهدها : وهو شديد البأس بينهم ، عظيم  
الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على  
الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة ، ولكنه  
أكثر مالا منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة .

ولما اكتمل جمع الفرنج أقبلوا بكل ما يملكون على مضايقة  
« عكا » مضايقة أضعفت من فيها ضعفاً عظيماً ، وجرى بين صلاح  
الدين والفرنج معركة عظيمة ، وهو يطوف بين الجند بنفسه ،  
وعيناه تذر فان الدمع ؛ وكلما نظر إلى « عكا » وما حل بها من  
البلاء اشتد في الزحف وحث على القتال . ولكن الأضعف كان  
قد أنهك رجال المدينة ، فجاءت منهم رسالة يقولون فيها : « إنا قد  
بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد إن

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٤ .

لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشتري . قابناء .  
 وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، وأنكى في قلوبهم .  
 وامام كثرة العدو الساحقة اضطر أهل « عكا » إلى أن  
 يصالحوه على الرغم من إنكار صلاح الدين الذي كان يريد  
 مواصلة القتال ، فسقط البلد في يد العدو يوم الجمعة ١٧ من  
 جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ؛ ولم يف ملك الإنجليز بما وعده  
 أسرى المسلمين ، بل أحضرهم مكبلين بالجبال ، وحمل عليهم هو  
 وجنده حملة الرجل الواحد ، فقتلوه طعنا بالسيوف .

وأجمع العدو أمره على المسير إلى بيت المقدس ، فجمع  
 السلطان أمراءه يستشيرهم كعادته ، وكان ممن حضر القاضي  
 ابن شداد ، فطلب منه صلاح الدين أن يبحث الحاضرين على  
 الجهاد ، فكان مما قاله : « إن النبي لما اشتد به الأمر بايعه  
 الصحابة على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به ،  
 والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ؛  
 فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه . ثم قال لهم صلاح  
 الدين : « اعملوا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعملون  
 أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة بذمكم ، وأن هذا  
 العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أتم ، فإن وليتم بأنفسكم

والعباذ بالله طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك في  
ذمتكم ؛ فإنكم أتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ،  
فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام .

وكان لهذا الحديث وكلام ابن شداد أكبر الأثر في نفوس  
المجتمعين ، حتى قال بعضهم : « يا مولانا ، ليس لنا إراقابنا ،  
وهي بين يديك ، والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن  
نموت » ، وأمن الحاضرون على كلامه ، وتأهبوا للقاء العدو ،  
أشد الناس تلهفا على لقائه .

ولم يلبث العدو بعد أن أقبل إلى بيت المقدس أن اختلف :  
أيهاجم المدينة أم يرحل عنها ، وقر رأيه على الرحلة .

ثم أخذت الرسل تتردد في الصلح ، وكان العدو هو الذي  
بدأ بطلب الحديث فيه ، وكان أول مآدار من حديث بين الفريقين  
أن قال الفرنج : « إنا قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين  
الرجال الأبطال ، ونحن إنما جئنا لنصرة إفرنج الساحل ،  
فاصطلمحوا أتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » . واجتمع ملك  
الإنجليز بالملك العادل ، وأبدى له الرغبة في الصلح ؛ فقال له  
الملك العادل : أتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم فيه ،  
حتى أتوسط بينكم وبين السلطان . وهنا بدأ ريتشارد يذكر

أعلى شروطه للصلح ، مظهرا صرامة وقوة ، إذ قال : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم » . ولم تكن هذه القاعدة بطبيعة الحال مما يقبله الملك العادل ، وأخشن له في الجواب ، وجرت بينهما منافرة ، انصرفا بعدها على غير اتفاق . وترددت الرسل بين الفريقين ، وتحلل المفاوضات حروب ، استولى فيها صلاح الدين على يافا ، وكان يتربص كل فرصة يحارب فيها العدو ، ولكن الملل كان قد دب إلى عسكر الفريقين ، وكان ملك الإنجليز مصرا على أن تكون له « عسقلان » وأرسل يفرى السلطان بالنزول عنها ، وأنه إن وقع الصلح في هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج أن يشقى هاهنا ؛ فأجابه السلطان إجابة المؤمن الواثق بقوله : « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيه هاهنا فلا بد منها ؛ لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضاً إذا أقام ، إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشقى هاهنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه ، ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل على أن أشقى وأصيف ، وأنا في وسط بلادى ، وعندى أولادى وأهلى ، ويأتى إلى ما أريد ، وأنا رجل شيخ

قد كرهت لذات الدنيا ، وشبعت منها ، ورفضتها عنى . والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ؛ وأنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء .

ونزل « ريتشارد » على رأى صلاح الدين ، فعقد الصلح على أن يسود السلام ثلاث سنين من تاريخ التوقيع عليه ، وهو يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ ( ٢ من سبتمبر ١١٩٢ م ) . وبذلك انتهت الحرب الصليبية التى دارت فى عهد صلاح الدين ، بعد أن فقد فيها عدد ضخم من بنى الإنسان فى الشرق والغرب ، ونشرت لواء الأسى على آلاف الأسر ، وفقدت فيها ألمانيا واحداً من أعظم أباطرتها ، وأضاعت فيها إنجلترا وفرنسا زهرة شباب فرسانها ، ولم يكن لذلك كله من ثمن سوى امتلاك « عكا » . أمضى صلاح الدين معاهدة الصلح مكرها ؛ لما رآه فى الجند من الملل ، وكان يأمل أن يحدد قواه فى هذه المدة من السلم ؛ ليستخلص ما بقى فى يد الفرنج ؛ وبرغم طول الجهاد ومشقات القتال هذه المدة الطويلة فى حرب الفرنج ، وقف صلاح الدين لهم وقفات عنيفة حطمت آمالهم ، فلم يظفروا بغير امتلاك « عكا » ، واضطروا إلى النزول على شروطه .

مضى صلاح الدين بعد عقد الصلح إلى بيت المقدس . وأمر  
 بإحكام سورہ ، ثم ذهب إلى دمشق ، وفي طريقه إليها مر  
 بالنعور الإسلامية ، وتعهد هذه البلاد ، وأمر بإحكامها .  
 وأعلن السلطان رغبته في أداء فريضة الحج ، فألح عليه  
 الأمراء ألا يفعل ، خوفاً من غدر الفرنج ؛ فنزل على رغبته ،  
 مع شدة شوقه إليه ، وقد أرسل إليه القاضي الفاضل يقول له في  
 رسالة : « إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن  
 القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج  
 على حالهم ، وافتراق عساكرنا ، وسفر سلاطيننا سفرًا مقدرًا  
 معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة ، فيصبحوا القدس على غفلة  
 فدخلوا إليه ، والعباد بالله ، ويفرط من يد الإسلام ، ويصير  
 الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ، والعثرات التي لا تقال » .  
 ولكن صلاح الدين انتهاز فرصة عودة الحجاج من مكة ،  
 فخرج لاستقبالهم ، وكان محفلاً رهيماً تأثر منه السلطان وبكى ،  
 وعاد فرض من يومه مرضاً حاداً ، بقي به ثمانية أيام ، وتوفي  
 رحمه الله يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ ( ٤ من مارس  
 سنة ١١٩٣ م ) . وكان عمره سبعة وخمسين عاماً .

\* \* \*

توفى صلاح الدين ، وقد حقق الجزء الأكبر من آماله في طرد الصليبيين من الشام ، اللهم إلا رقعة صغيرة تمتد من صور ، إلى « عكا » ، وكم كان يتمنى أن يلقى بهم جميعاً إلى البحر ، بل إن آماله كانت أوسع من ذلك وأكبر ، قال ابن شداد في كتابه عن سيرة صلاح الدين : « سرنا . . . إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً شديداً ، وموجه كالجبال ، كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيل لي أنني لو قيل لي : إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل . . . فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلى رحمة الله وقال : « أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؛ إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم فيها . . . » فعظم وقع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان خطر لي .

#### — ٤ —

وإلى جانب عناية صلاح الدين بحرب الفرنج وتطهير الشام منهم ، عنى بأمر الثقافة ونشرها في أرجاء بلاده .  
ففي مصر لم تدع المدارس إلا في عهد صلاح الدين الذي

استخدم المدارس لنشر المذهب السني ، وكانت الدراسة العلمية قبله تلقى في الأزهر وفي الجوامع وبيت الحكمة ، فلما جاء صلاح الدين أنشأ المدارس في مصر والشام ، وكلما سمع بعالم ممتاز زين له الحجى ، إلى بلاده ، وحقق له جميع رغباته . وكان يفتد على المدرسين ، ويوسع الرزق على القائمين ببثوث الثقافة في الأمة ، حتى صارت أرزاق أرباب العلماء إقطاعا وراتبا تتجاوز مائتي ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار .

ومن المدارس التي أنشأها صلاح الدين بمصر « المدرسة الناصرية » بناها بجوار جامع عمرو بن العاص ، وهي أول مدرسة أنشئت بمصر للسنيين ، وقد تم بناؤها سنة ٥٦٦ هـ ، وكان في ذلك الحين وزيرا للعاضد الفاطمي ، فكان إنشاؤها من أشد ما عمل على تقويض الدولة الفاطمية ، لأنها أنشئت لفقه الشافعية ، تمهيدا لعودة مصر إلى المذهب السني .

ومع أن هذه المدرسة كانت الأولى فإنها لم تصل إلى مكانة « المدرسة الصلاحية » التي بناها صلاح الدين بجوار قبة الإمام الشافعي ليدرس فيها مذهبه ، ووكل أمر إنشائها إلى أحد رجاله الذين كان يثق بهم ، فنهض ببناء مدرسة لم تر البلاد مثلها من قبل ، في سعة المساحة وضخامة البناء ، حتى كان يحيل لمن يطوف



بأرجائها أنها بلد مستقل ، ولم يضمن عليها صلاح الدين ببال ،  
ثم وقف عليها ما ينهض بنفقاتها . ولعلها صارت بعد تمام بنائها  
سنة ٥٧٢ هـ أعظم مدرسة في العالم الإسلامي ، فكانت بذلك  
تسمى : تاج المدارس . وقد قام بالتدريس فيها جماعة من  
أعيان العلماء .

وبنى صلاح الدين أيضا أول مدرسة للمالكية بمصر سنة  
٥٦٦ هـ ، وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص أيضا ، وعرفت  
بالمدرسة القمحجية ، لأنه كان من جملة ما وقفه عليها صلاح الدين  
ضيعة بالقيوم تغل قحاً كان يوزع على مدرسيها وطلبتها .

كما أنشأ في القاهرة أول مدرسة لدراسة مذهب أبي حنيفة  
سنة ٥٧٢ هـ ، عرفت بالمدرسة السيوفية ، لأن سوق السيوفية  
كان يومئذ عند بابها .

ونسب إلى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بدمشق ، وهي  
التي أنشأها نور الدين بالقرب من البيمارستان النوري<sup>(١)</sup>، ولعل  
سبب نسبتها إلى صلاح الدين أنه قام فيها بإصلاحات وزيادات  
استدعت هذه النسبة . وهذه المدرسة للشافعية ، وله بدمشق  
مدرسة للمالكية أيضا<sup>(٢)</sup> .

(١) المدارس في تاريخ المدارس ١ : ٣٣١ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

ولما استعاد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، نفذ فيه سياسته التي ترمى إلى نشر العلم ، وتزويد شعبه بالثقافة ، فأنشأ به مدرسة للشافعية سنة ٥٨٨ هـ ، كانت من أجل ما بناه من المدارس ، ووكل أمر التدريس فيها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد أحد رجالات عصره في علوم الدين والتاريخ .

— ٥ —

وعنى صلاح الدين كذلك بالحياة الاجتماعية لشعبه ، فأنشأ المستشفيات ببعض كبريات المدن في مصر والشام .

وإنه بما لاشك فيه أن هذه الحروب التي خاضها صلاح الدين قد استنفذت جزءا كبيرا من دخل البلاد ، ولو أن الحياة كانت مستقرة ، ولم يكن الأعداء قد اغتصبوا البلاد ، واضطر صلاح الدين إلى استردادها — لأنفقت هذه الأموال الكثيرة في نهضة البلاد من الناحية الاجتماعية .

— ٦ —

وكان لصلاح الدين حب للأدب وحذب على أهله ، يغمرهم بعطاياه ، ويستهدهم شعرهم ، ويفدون إليه ينشدونه إلتاحهم ، أو يرسلون إليه بما نظموه ، وكان يستحسن الأشعار الجيدة

ویردها فی مجالسه ، حتی قیل : إنه کثیرا ما کان ینشد  
قول الشاعر :

وزاری طیفُ مَنْ أهوى على حذرٍ  
مَنْ الوُشاةِ وداعی الصُّبحِ قد هَتَفَا  
فكدتُ أوقِظُ مَنْ حَوَّلَى به فَرَحًا  
وکاد یُهتک سِرُّ الحبِّ بی شَغَفَا  
ثمَّ ابتهتُ ، وآمالی تُحیلُ لی

نیل المَنی ، فاستحالت غِیْطَتی أُسْفَا<sup>(۱)</sup>  
وقیل : إنه کان یعجبه قول ابن المنجم فی خضاب الشیب وهو :  
وما خضبَ النَّاسُ البیاضَ لِقُبْحِهِ

وأقْبَحُ منه حین یظهرُ ناصِلُهُ<sup>(۲)</sup>  
ولکنه مات الشَّبَابُ ، فسوَّدَتْ

على الرَّسْمِ<sup>(۳)</sup> من حُزْنٍ علیه منازلُهُ<sup>(۴)</sup>

---

(۱) وفيات الأعيان ۲ : ۴۰۳ . (۲) نصل الشعر : خرج من الخضاب .

(۳) علی الرسم : كالعادة والمألوف والمرسوم .

(۴) وفيات الأعيان ۲ : ۴۰۳ .

وذكر العباد الكاتب أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين :

أيُّها الغائبون عَنَّا وإن كَفَّ  
نُتَمِّ لِقَلْبِي بِذِكْرِكُمْ جِيرَانَا  
إِنِّي مُدُّ قَدْتُكُمْ لَأَرَاكُمْ  
بُعْيُونِ الصَّمِيرِ عِنْدِي عِيَانَا<sup>(١)</sup>

وكان يضمن رسائله الشعر قال العباد : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه ، مبشرة بطيب أنبائه ، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ما كنتُ بالمنظور أقنع منكم  
ولقد رضيت اليوم بالمسموع<sup>(٢)</sup>  
وهذا الشعر الذي استحسنته أو أرسلته إلى بعض صحبه يدل على ذوق سليم ؛ لجودة معناه ، واستقامة عبارته .  
وكثيراً ما كان يسمر بالحديث عن الشعر والشعراء ، وكان

---

(١) المصدر السابق نفسه . (٢) الروشتين ١ : ١٧٩ .

مغرمًا بديوان أسامة بن منقذ ، كما روى العماد<sup>(١)</sup> ، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده في مناسباته . وكان كتاب الحماسة من حفظه قالوا : لما مات توران شاه أخو صلاح الدين ، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان ، حزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي<sup>(٢)</sup> . وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه .

. ومما أثر من عطايه للشعراء ما رواه ابن خلكان من أن بعض الشعراء أنشد صلاح الدين شعرا جاء فيه :

الله أكبرُ نال القوسَ باريها  
ورام أسهمَ دينِ الله راميهـا  
فكم لمصرٍ على الأمصارِ من شرفٍ  
باليوسفَيْنِ ، فهل أرضٌ تُدانيها  
فبا بن يعقوبَ هزّتْ جِيدَها طَرَبًا  
وبابن أيُّوبَ هزّتْ عِطْفَها تيهـا  
قل للملوكِ تُخَلِّي عن ممالكِها  
فقد أتى آخِذُ الدُّنيا ومُعْطِيها

(١) الروضتين ١ : ٢٤٧ . (٢) المرجع السابق ٢ : ١٨ .

فأعطاه صلاح الدين ألف دينار (١) .  
ومدحه سعادة الأعمى بقصيدة طائية أنابه عليها بألف دينار  
كذلك (٢) .  
ومدحه أحمد بن علي بن أبي زنبور بقصيدة طويلة وصله  
عليها بخمسمائة دينار (٣) .  
وقال العماد في الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حمص قصد  
المهذب بن أسعد بقصيدة أولها :

مانام بمسدّ البين يستحلى الكرى  
إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين : هذا الذي يقول :  
« والشعر ما زال عند الترك متروكا » ؛ فعبّج جائزته ،  
لتكذيب قوله ؛ وتصديق ظنه ؛ فشرفه ، وجمع له بين الخلعة  
والضيعة . وقد عني الفاضل ما قاله المهذب في قصيدة مدح بها  
الصالح بن رزيك ، وأولها : « أما كفاك تلافى في تلافيك » .  
وفيها :

(١) وفيان الأعيان ٢ : ٤٠٥ .

(٢) خريدة القصر : ١ : ٧٨ .

(٣) بشية الوعاة ص ١٤٨ .

مَنْ أَرْتَجَى يَا كَرِيمَ الدَّهْرِ يَنْعَشِي  
جَدَّوَاهُ، إِنْ خَابَ سَعْيِي فِي رَجَائِيكَ  
أَمْدَحُ التُّرْكَ أَبْغَى الْفَضْلِ عِنْدَهُمْ  
وَالشُّعْرُ مَا زَالَ عِنْدَ التُّرْكِ مَتْرُوكًا<sup>(١)</sup>

وهنا أقف وقفة قصيرة . أتبين فيها مقدار غرام صلاح الدين بالعروبة ، وأن يظهر بمظهر الملك العربي ، يحافظ على التقاليد المتوارثة عند ملوك العرب ، ويأبى أن يخل بمظهر منها ، فهو يشجع الشعر ، ويثيب الشعراء .

ويذكر العمد الكاتب أن صلاح الدين كان يستهديه شعره ونثره<sup>(٢)</sup> . مما يدل على غرامه بالأدب وحب لأهله . كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء ، كهذا المجلس الذي عقده بعد أن فتح بيت المقدس ، واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء في هذا الفتح المبين<sup>(٣)</sup> .

وكان له ذوق ينقد به ما يعرض عليه من الشعر : كتب نشو الدولة أحمد بن نقادة أحياناً يدعو بها العمد إلى دمشق ،

(١) الروشتين ١ : ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٩٦ .

» وقد دخل أوان الشمس الملهود ، وهو موسم دمشق  
المشهود « أولها :

دعا النَّاسَ لِلذَّاتِ مُشْمَشُ جِلَّتِي  
فقد أسرعوا من كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِيقٍ  
قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان ، قال فما قلت  
في جوابه ؟ فأنشدته .

هلموا نُسَابِقْ نَحْوَ مُشْمَشِ جِلَّتِي  
وَمَمَّ كَمَا نَهَوَى عَلَى الْأَكْلِ نَلْتَقِي  
بَدَتْ بَيْنَ أَوْرَاقِ الْفُصُونِ كَأَنَّهَا  
كُرَاتُ نُضَارٍ فِي جُجَيْنٍ مُطَرَّقٍ (١)  
قال : فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال : تشبيه الورق  
باللجين غير موافق ؛ فإنَّ الورق أخضر : فقلت :  
كُرَاتُ نُضَارٍ بِالزَّمْرُودِ مُحْدَقٍ (٢)  
فغير الشاعر المشبه به ليطلق المشبه .

(١) طرق الجديد : مدده ورققه .

(٢) الروضتين ٢ : ٢١٠ .



## صلاح الدين بين شعراء عصره

كان صلاح الدين أعظم بطل في الحروب الصليبية  
ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ،  
ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه وجهاده ، ويستجلون  
كل ما قام به من حركات مباركة في سبيل مجد الإسلام ؛ فقد  
تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره ، عرفت  
منهم زهاء خمسين شاعرا ، منهم المصري ، والشامي ، والعراقي (١) ،  
يقدمون إليه حيث هو مقيم في إحدى المدن ، فينشدونه شعرهم ؛  
قال العماد في الخريدة : كنت جالسا بين يدي الملك الناصر  
صلاح الدين بدمشق في دار العدل ، فحضر سعادة الضير ،  
( وهو من أهل حمص ) ، ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر  
شعبان ، سنة إحدى وسبعين ( وخمسمائة ) :

حَيْثُكَ أَعْطَفُ الْقُدُورِ بَيَانَهَا .

لَمَّا انْتَنَتْ تِيهَا عَلَى كُثْبَانِهَا .

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام من ٤٣٤ . وراجع  
إلى هذه الصفحة من الكتاب وما يليها لمعرفة أسماء هؤلاء الشعراء ، ومراجع شعرهم ،  
وصلحات هذه المراجع .

و بعد غزل القصيدة ووصف دمشق قال يصف صلاح الدين:  
 ساطعاً الملك ابن أيوب الذي  
 كفاه لاتفك عن هطلانها  
 غيث يكر من الظبي بصواعق  
 ماء الردى يجري على نيرانها  
 بصوارم أجفانها قعم العدى  
 لا ما كساها القين من أجفانها<sup>(١)</sup>  
 ملك إذا جليت عرائس ملكه  
 رصعت فريد العدل في تيجانها  
 وإذا ججافله أثرن سحائبها  
 لمعت بروق النصر في أحضانها  
 ويستمر سعادة في إنشاد قصيدته التي بلغ ما أورده العماد  
 منها أربعة وسبعين بيتاً<sup>(٢)</sup>

(١) القين : الحداد . والاجفان : جع جفن ، وهو : غمد السيف .

(٢) خرقة القمر ١ : ٦٠ وما يليها .

وفي اليوم التالي قام ، وقد احتفل الحفل ، بحضور أهل  
الفضل ، فأنشده :

لا يُقْعِدَنَّكَ ماحِلُوا وما عَقَدُوا  
هم الذَّنَاب ، وأنت الضَّيِّعُ الأسدُ  
ويظلُّ في إلقاء قصيدته التي بلغت خمسة وستين بيتاً ،  
يُحْتَمِلُها بقوله :

فاسلَمْ ، وجَيْشُكَ لا يُثْنِي له عَلمٌ  
واسعدُ ، ويثُتُّكَ لا تَهْوِي له عُمدُ  
بحيثُ مِنْ مُخْطَفٍ لَدُنْ له طُنْبُ  
وحيثُ مِنْ مُرْهَفٍ عَصَبٍ له وَتِدُ<sup>(١)</sup>  
وحيثُ شَأْنُكَ سَامٍ ماله صَبَبُ

وحيثُ شَانِيكَ هَاوٍ ماله صُعْدُ<sup>(٢)</sup>  
وروى العماد في الخريدة أيضاً<sup>(٣)</sup> أن البهاء السنجاري (وهو

---

(١) الطنب : جبل طويل يشد به سراقق البيت . والمرهف : السيف .  
والعصب : القاطع .

(٢) خريدة القصر ١ : ٤١٢ .

(٣) ٢ : ٤٠٢ .

من الموصل ) قام فأنشد الملك الناصر قصيدة في دار العدل  
بدمشق سنة إحدى وسبعين ( وخمسة ) في شعبان منها :

جَرَدْتُ مِنْ فَتَكَاتٍ لَحْظِكَ مُرْهَفًا  
وَهَزَزْتُ مِنْ لَيْنِ الْقَوَامِ مُثَقَّفًا<sup>(١)</sup>  
ومنها في وصف صلاح الدين :

وَجَرَى بَنَى الْأَمَلُ الطُّمُوحَ ، فَأَمَّ بِي  
سُلْطَانَ أَرْضِ اللَّهِ طُرًّا يُوسُفًا  
النَّاهِبَ الْأَرْوَاحِ فِي طَلَبِ الْعُلَا  
وَالْوَاهِبَ الْأَجَالِ فِي حَسَنِ الْوَفَا  
مَوْلَى لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُجْتَلَى  
مُلْكٌ يُجَدِّدُ ، أَوْ مَلِكٌ يُصْطَفَى  
مَلِكٌ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ جُنُودُهُ  
وَالسَّعْدُ عِنْدَ رِكَابِهِ إِنْ أَوْجَفَ<sup>(٢)</sup>

(١) المثقف : الرمح .

(٢) أوجف الغرس : جمعه يعدو عدوا مريعا .

والله ناصرُه على أعدائِه

كتب القضاء له بذلك أحرفاً

وحينما يرد الشعراء إليه ، وهو في خيمه ؛ فهذا مذهب  
الدين عبد الله بن أسعد الموصلى يقد عليه ، وهو خيم بالعاصى ،  
عندما وصل إلى حمص ، وينشده في مدحه . وما قال فيه :

وما خَضَعَ الفرَنْجُ لَدَيْكَ حَتَّى

رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكِفَاحِ

وما سألوك عَقْدَ الصُّلْحِ وَدًّا

ولكنْ خَوْفَ مُغَلِبَةٍ رَدَّاحٍ<sup>(١)</sup>

مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ سَهْلًا وَحَزْنًا

أَسودَا تَحْتَ غَابَاتِ الرِّمَاحِ<sup>(٢)</sup>

وقد يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا إليه ؛ فقد

(١) المعلية : الكتيبة التي تعلن عن نفسها في الحرب . والرداح :  
الثقيلة الجرارة .

(٢) الروضتين ٢ : ١٦ و ١٧ .

ارسل إليه سبط بن التعاويذى بقصائده من بغداد<sup>(١)</sup> ، وارسل  
إليه من مصر أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني قصيدة منها :

يا مليكاً أضْحَى الزَّمانُ يُنْجِـي  
هـ بلفظ المَذَلِّ المسكين  
قَذَفَتْ أَهْلَهُـا الحُصُونُ إِلَى بَأْ  
سِكَ ، حَتَّى عَوَضَتْهُمْ بِالشَّجُونِ  
وَأَرَاهِمُ رَبُّ السَّمَاءِ بِأَسْيَا  
فِكَ مَا لَمْ يَجُلْ لَهُمْ فِي ظُنُونِـ  
يا مليكاً يَلْقَى الحُرُوبَ بِحَوْلِ اللَّهِ  
هـ مَسْتَفِصِماً وَصَدَقَ اليَقِينُ  
إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ الْمُبِينَ شَفَاءٌ  
لِصَدُورٍ ، وَقِرَّةٌ لِلْعَيُونِ<sup>(٢)</sup>

وكان يتولى عرض هذه القصائد عليه عند ورودها أحد  
المقرئين إليه .

(١) راجع ديوان سبط بن التعاويذى ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ ، ووفيات الأعيان

٤٠٣ : ٢ .

(٢) الروشتين ٢ : ٩ .

وقد بقى لنا من الشعر الذى قيل فى صلاح الدين مقبدار  
ضخم ، وليس ذلك كل ما قيل فيه ، ولكن فقد منه قدر كبير ،  
تبينه إذا علمنا أن ابن الساعاتى أنشأ فى صلاح الدين قصائد  
طويلة كثيرة لم يبق من معظمها سوى غزلها ، والبيت الذى  
تخلص فيه من الغزل إلى المدح<sup>(١)</sup> ، وأن القصيدة الطويلة قد يبق  
منها بيت أو بيتان ، فهذا على بن المبارك يمدح صلاح الدين  
بقصيدة أورد منها معجم الأدباء مطلعها ، وهو :

ألا حَيِّيا بالزَّمَتَيْنِ المعالمَا

وإن كنَّ قد أصبحن دُرِّسًا طواسِمًا<sup>(٢)</sup>

وأورد من مديحها قوله :

إذا كانت الأعداء فعلا مضارعا

أصار مواضيئه الحروف الجوازما<sup>(٣)</sup>

وهذه قصيدة طويلة نسبها ابن خلكان إلى ابن الشحنة

---

(١) راجع ديوان ابن الساعاتى ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠  
و ٧١ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ .

(٢) الرقتين : مكان . والرقعة : الروضة أو جانب الأودى . والدرس : جمع  
دارس ، وهو المحو . والطواسم : جمع طاسم وهو المنتظم .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ والمواضي : السيوف القاطعة .

الموصلى . وذكر ان عدة اياتها مائة وثلاثة عشر بيتا . ومع ذلك لم يبق لنا من هذه القصيدة سوى مطلعها ، وهو :

سَلَامٌ مَشُوقٍ قَدْ بَرَّاهُ التَّشَوُّقُ  
على جِـيْرَةِ الحَيِّ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا

وسوى بيتين كانا سائرين وقت إنشائهما ، وهما :

وَإِنِّي امْرُؤٌ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَكَارِمِ  
سَمِعْتُ بِهَا ، وَالْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تَعْشَقُ  
وَقَالَتْ لِيَ الْآمَالُ : إِنْ كُنْتَ لَاحِقًا

بِأَبْنَاءِ أَيُّوبِ فَأَنْتَ الْمَوْقِيُّ

وقد يكون للقصيدة حظ أفضل ، فيبقى خمسة وعشرون بيتاً ، من مائة واثنين وخمسين بيتاً ، كالقدسية الكبرى للحكيم أبي الفضل ، وهى التى أولها :

تَصَارِيفُ دَهْرٍ أَعْرَبَتْ لِمَنْ اهْتَدَى  
وَبَسْطَةُ أَمْرِ أَعْرَبَتْ مَنْ تَمَرَّدَا



لِسُرْعَةِ فَتْحِ الْقُدْسِ سِرًّا مُغَيَّبًا

وفي صُرْعَةِ الْإِفْرَنْجِ مُعْتَبَرًا<sup>(١)</sup> بدا

ويذكر التاريخ أن شعراء مدحوه من غير أن يروى من مدحهم شيئاً<sup>(٢)</sup> .

وبعد فقد سجل الشعر كثيراً من أحوال صلاح الدين ،  
اشترك في الحديث عنها معظم شعراء عصره ؛ وهانحن أولاء  
نعرض بعض ما ورد من هذا الشعر .

## - ١ -

سجل الشعر خطي صلاح الدين منذ وقت مبكر ، وربما  
كان من اسباب ذلك أنه كان رجلاً مرموقاً منذ الحداثة ،  
وأنه كان يؤدي واجبه فيما يوكل إليه من الأمور كما ينبغي أن  
يكون الأداء ، وأنه كان ذا خلق نبيل يجذب الناس إليه ،  
ويدفعهم إلى حبه وتقديره . وقد حفظ التاريخ شعراً قيل فيه  
عندما ولي شحنة دمشق<sup>(٣)</sup> ، فقال العرقلة يهنئه :

(١) المعتبر : العظة .

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٣٨ .

(٣) الشحنة بالكسر : من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان

وهو يشبه مدير الأمن العام .

لُصُوصَ الشَّامِ ، تَوَبُوا مِنْ ذُنُوبٍ  
تَكْفُرُهَا الْعُقُوبَةُ وَالصَّفَادُ<sup>(١)</sup>

لَئِنْ كَانَ الْفَسَادُ لَكُمْ صَاحَا  
فَمَوْلَايَ الصَّالِحُ لَكُمْ فَسَادُ  
وَهَنَاهُ بِقَصِيدَةٍ أُخْرَى يَقُولُ فِيهَا :

رَوَيْدُكُمْ يَا لُصُوصَ الشَّامِ  
مَ ، إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ فِي مَقَالِ  
وَأَيَّاكُمْ وَسَمِيَّ النَّبِيَّ

سِ : يَوْسُفَ رَبِّ الْحَبَبِ وَالْجَمَالِ  
فَذَاكَ مَقْطَعُ أَيْدِي النَّسَا

، وهذا مقطّعُ أيدي الرجالِ  
وهذا الشعر الذي يهني صلاح الدين بمنصبه الجديد ينذر  
أخطر المتمردين على الأمن ، ويقر لصلاح الدين بالمقدرة على  
الضرب على أيدي أولئك المفسدين ، وباللحزم في معاملتهم ،  
وبالعقل المؤدّي إلى حسن تصريف الأمور

(١) الصفاد : ما يوثق به الأسير : القيد .

كَارَفَعِ الْعَرْقَلَةَ يُدْهِهِ إِلَى السَّمَاءِ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُلِيَ صَلاَحَ الدِّينِ  
أَمْرَ مِصْرَ عِنْدَمَا جَاءَ إِلَيْهَا مَعَ عَمِّهِ أَسَدِ الدِّينِ شَيْرَكُوهُ ، فَيَقُولُ :  
رَبِّ كَمَا مَلَكَتْهَا يُوسُفُ الصَّ

دَيِّقَ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ  
يَمْلِكُهَا فِي عَصْرِ نَا يُوسُفَ الصَّ

سَادِقُ مِنْ أَوْلَادِ أَيُّوبَ  
مَنْ لَمْ يَزَلْ ضَرَّابَ هَامِ الْعَدَى

حَقًّا ، وَضَرَّابِ الْعِرَاقِيبِ  
فَلَمَّا عَادَ إِلَى دِمَشْقَ حَتَّى الْعَرْقَلَةَ عَلَى الْعُودِ إِلَيْهَا ، فَقَالَ :  
إِلَى كَمْ ذَا التَّوْنِي فِي دِمَشْقِ

وَقَدْ جَاءَتْكُمْ مِصْرُ تَهَادَى  
عَرُوسُ بَعْلَمَ أَسَدُ هَزَبَرُ

يَصِيدُ الْمُعْتَدِينَ ، وَلَنْ يُصَادَا  
وَيَشْتَدُّ أَمَلُ الشُّعْرَاءِ فِي أَنْ يَسْتَقِرَّ صَلاَحُ الدِّينِ بِمِصْرَ ،  
وَيَجْتَمِعُ فِيهَا ثَبْلُهُ بِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ؛ فَيَقُولُ الْعَمَادُ الْكَاتِبُ لِنَجْمِ الدِّينِ  
أَيُّوبَ وَالِدَ صَلاَحِ الدِّينِ :

أخوك وأبنك صدقاً منهما اعتصما  
 بالله ، والتصرُّ وعدُّ غيرُ مكذوبٍ  
 هاهما من في يومئذٍ وقوى  
 تَعَوَّدَا ضربَ هامٍ أو عراقيبٍ  
 غداً يَشُبَّانِ في الكفارِ نارَ وغيٍّ  
 بلفحها يصبح الشَّبَّانُ كالشَّيبِ  
 بملكِ مصرٍ ونصرِ المؤمنينِ غداً  
 تحظى النفوسُ بتأنيسٍ وتطمينٍ  
 ويستقرَّ بمصرِ يوسفٍ ، وبه  
 تَقَرَّ بعد التَّنْائِي عينُ يعقوبَ  
 ويلتقي يوسفٌ فيهِما بإخوته

واللهُ يجمعهم من غيرِ تَثْرِيْبٍ (١)  
 ولست أدري أهو صوتُ القدرِ الذي جعل الشعرَ يؤملُ  
 في أن يستقرَّ صلاحُ الدينِ بمصرِ دونِ عمه شيركوه ، أم أن الأمرُ  
 لا يعدو أن يكون الشعرُ يتحدث إلى والدِ الصلاحِ . ولعله بذلك

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذلب .

كان يسجل أمنية تدور في نفس نجم الدين ، وربما لم تكن هذه  
الأمنية على الوجه الذى انتهت إليه .

أما الأحداث التى صاحبت قدومه إلى مصر ، وعودته منها ،  
ولقاءه للفرنج ، وهزيمتهم أمامه ، وحصاره فى الإسكندرية ،  
وخداع شاور له فيسجلها العباد فى قوله :

لَا ذَبَالَتَيْلَ شَاوَرٍ مِثْلَ فِرْعَوْنَ

نَ ، فَذَلَّ اللَّاجِي ، وَعَزَّ الْعُبُورُ

شاركَ المُشْرِكِينَ نَعِيًا ، وَقَدِّمًا

شَارَكْتَهُمْ قُرَيْظَةً وَالتَّضْيِيرُ

وَالَّذِي يَدَّعِي الْإِمَامَةَ بِالْقَا

هَرَّةٍ ارْتَاعَ أَنَّهُ مَقْبُور

وَبَنُو الْهَمْفَرَى هَانُوا ، فَفَرَّوْا

وَمِنَ الْأُسْدِ كُلِّ كَلْبٍ فَرَّوْرُ

إِنَّمَا كَانَتْ لِلْكَلابِ عُوَالًا

حَيْثُمَا كَانَ لِلْأَسْوَدِ زُبَيْرُ

وفيليبٌ عند الفَرَارِ سليبٌ  
فهو بالرَّغْبِ مطلقٌ مأسورٌ

وحيت الإسكندرية عنهم  
ورحى مَنْ بها عليهم تدورُ

حاصروها ، وما الذى بان من ذبٍّ  
لك عنها وحفظها محصورُ

كحصار الأحزابِ طيبةً قدما  
ونبيُّ الهدى بها منصورُ

فاشكر الله حيث أولاك نصراً

فهو نِعَمُ المولى ونعم التّصيرُ

والشعر يصور التيارات التى كانت تعترض صلاح الدين  
وتقف فى وجهه : من وزير مصرى لا يجد غضاضة فى الاستعانة  
بالفرنج والاستنصار بهم إذا دعا الأمر ، ومن إفرنج طامحين  
إلى ملك مصر ، ينتهزون كل فرصة للوصول إلى ذلك الهدف ،  
ومن خلافة تخاف الوزير والفرنج وصلاح الدين جميعاً .

فلما تم لصالح الدين الانتصار على شاور والفرنج أرسل إليه  
اسامة بن منقذ قصيدة أولها : « سلم على مصر ، لا ربع بندي  
سلم » ، وفيها يقول :

النَّاصِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَفِّي بِذِمَّتِهِ  
وَمَنْ نَدَى كَفِّهِ يُغْنِي عَنِ الدِّيمِ (١)  
وَمَنْ إِذَا جَرَّدَ الْبَيْضَ الصَّوَارِمَ فِي الْـ

هَيْجَاءٍ أَغْنَاهَا فِي التَّبْيِضِ وَالْقِمَمِ  
وَرَدَّ طَاغِيَةَ الْإِفْرَنْجِ بِحَسَبِ مَا  
رَجَاهُ مِنْ مُلْكٍ مِصْرِي كَانَ فِي الْحُلُمِ  
وَلِي ، وَرَاحَتُهُ صِفْرٌ (٢) وَقَدْ مُلِئَتْ

بَعْدَ الطَّمَاعَةِ مِنْ يَأْسٍ وَمِنْ نَدَمٍ  
يُصَعَّدُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ نَفْسًا  
لَوْ لَا فَحَّ الْبَحْرُ أَخْضَى الْمَوْجَ كَالْحَمَمِ (٣)

(١) الدِّيم : جمع ديمة ، وهي المطر يهطل في سكون .

(٢) صِفْر : خالية .

(٣) صعد نفسه : تنفس تنفساً محدوداً . والحَمَم : جمع حمة ، كرطبة ،  
وهي ما أحرق من خشب ومخوه .

وفى السَّلامَةِ ، لولا جهلهم ، ظَفَرْتُ

لَعَنَ أَرَادَ نِزَالَ الْأَسَدِ فِي الْأَجْمِ (١)

وهو هنا يصور ما أصاب الفرنج من خيبة أمل عندما أخفقوا في الاستيلاء على مصر ، وتبددت آمالهم وصارت أحلاما ، ويصور الشعر يأسهم وندمهم والزفرات الحرى يصعدونها حزنا وأسى .

كما حدثه أسامة في قصيدة أخرى عن انتصاره على شاور الذى كاد يضع البلاد بين أيدي الفرنج تحقيقا لأطماعه ، فقال له :

أَقَمْتَ عُمُودَ الدِّينِ حِينَ أَمَالِهِ

لَطَاغَى الْفَرَنْجِ الْعُتَمِ طَاغَى بَنِي سَعْدِ (٢)

أَفَدْتَ بِمَا قَدَّمْتَ مُلْكَكَ مَخْلُودًا

وَذِكْرًا مَدَى الْأَيَّامِ يُقَرَّنُ بِالْحَمْدِ

وَذِكْرُكَ فِي الْآفَاقِ يَسْرِي كَأَنَّهُ الصَّبَبُ

سَبَّاحُ لَهُ تَنْشُرُ الْأَلُوفَ وَالْبَدَّ (٣)

(١) الأجم : جمع أجمة ، وهي مسكن الأسد .

(٢) العُتَمَ : جمع عُتَمَ ، وهو الذى لا يفصح شيئا . وطاغى إلى ساعدهم : شاور .

(٣) الألوة والنم : عودان يتبختر بهما .



والبيت الأخير يدل على ما كان لهذه الأعمال التي قام بها صلاح الدين من ذكر مدو في أرجاء العالم الإسلامي يومئذ .  
وقد أحس الشعراء بأن في انتصار صلاح الدين على شاور بناء ملك دائم في مصر ، ولم يعبا الشعر بالخليفة الفاطمي وبقائه أو موته ، مما ينبئ بضآلة شأنه ، وضعف سلطانه ؛ وذلك حق لا مبرية فيه .

فلما ولي صلاح الدين وزارة العاضد هنأه عمارة البيئي تهنئة يبدو فيها أمل الشاعر في أن يظل مبقيا على الخلافة الفاطمية ، فقد عدّ دماثره في نصرة الخليفة الفاطمي ، ودماه بابن النبي ، وصور ما كانت البلاد تعانيه من الفرنج ، وذلك إذ يقول مخاطبا صلاح الدين :

لك الحسبُ الباقي على عَقَبِ الدَّهْرِ  
بل الشَّرَفُ الرَّاقِي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ<sup>١)</sup>  
كذا فليكن سعيُ الملوكِ إذا سعت  
بها الهممُ العُلَيَّا إلى شرفِ الذِّكْرِ

---

(١) النسر : كوكب في السماء .

نهضتم بأعباء الوزارة نهضة  
 أقلتُم بها الأقدام من زلَّة العثرِ  
 كسفتُم عن الإقليم غمَّه ، كما  
 كسفتُم بأنوار الغنى ظلمة الفقر  
 حميتُم من الإفراج سربَ خلافة  
 جريتُم لها مجرى الأمان من الذعر  
 ولما استغاث ابن النبي بنصركم  
 ودائرة الأنصار أضيق من شبر  
 جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجا  
 وما اشتقت الأنصار إلا من النصر  
 كتائب في جيرون<sup>(١)</sup> منها أو آخر  
 وأولها بالنيل من شاطئ مصر  
 طلعتُم فأطلعتُم كواكب نصره  
 أضامت ، وكان الدين ليلاً بلا فجر

(١) جيرون : دمشق .

أخذتم على الإفرنج كلَّ ثَلَاثَةِ  
 وقتلتم لأيدي الخليل : مرى على مرى<sup>(١)</sup>  
 لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم  
 عبرتم ببحرٍ من حديدٍ على الجسر  
 طريقاً تقارعتم عليها مع العدى  
 ففرستم بها، والصخرُ يُقرعُ بالصخرِ  
 يدٌ لا يقومُ المسلمون بشكرها  
 لكم آلُ أيوبٍ إلى آخرِ الدهرِ  
 بكم آمنَ الرحمنُ أعظمَ يثربٍ  
 وأمنَ أركانُ الشَّيْثَةِ والحِجَرِ  
 ولورجعتُ مصرٌ إلى الكُفْرِ لا نطوى

بِساطُ الهدى من ساحِ البرِّ والبحرِ  
 وهذه القصيدة ناطقة بأشياء كثيرة تعدُّ صدًى للأحداث  
 التاريخية في تلك الحقبة من الزمان ؛ فقد صورت هذا القلق

---

(١) هو ملك بيت المقدس Amari

والاضطراب الذى كان يسود مصر يومئذ من جراء أطماع  
الوزراء ، والحروب الدائرة على أرضها نتيجة لهذه الأطماع ، فلم  
يكن ثمة استقرار فى مصر أو أمن يعيد الطمأنينة إلى النفوس ،  
وقد أجاد الشاعر فى تصوير ذلك بالغمة ترين على القلوب ،  
وتجعل جو الإقليم المصرى قلقا مضطربا .

وصورت هذا الخوف الذى ملأ على الخليفة قلبه ، حتى جاء  
صلاح الدين فبدل هذا الخوف أمنا . وصورت ضعف أنصار  
الخليفة فى مصر ، ضعفا دفعه إلى التماس النصر من جيش غير  
جيشه ، وإنسان لا يدين بعقيدته ، وهو نور الدين محمود ، كما صورت  
ضعامة جيش صلاح الدين ، فقد جعل آخره فى دمشق وأوله  
بشواطئ النيل ، وصورت هذا النزاع والتسابق على أخذ مصر  
وامتلاكها بين نور الدين محمود والفرنج ، وفوز صلاح الدين  
بهذا الجزء العزيز من الوطن الإسلامى :

طريقٌ تقارعتُ عليها مع العدى

ففرّتمُ بها ، والصَّخْرُ يُقَرَّعُ بالصَّخْرِ

وصورت مكانة مصر فى العالم الإسلامى يومئذ ، ونظرة  
الفرنج إليها ، وإيمانهم بأنهم إذا ملكوها استطاعوا أن يضعوا

أيديهم على باقي أجزاء العالم الإسلامي ؛ لأنها منه مكان القلب  
النا بض ، فلم يكن عمارة مغاليا يوم قال :  
ولورجعت مصرُ إلى الكُفْرِ لانطوى

بساطُ الهدى من ساحةِ البرِّ والبحرِ  
وحين رأى في أمنٍ مصرَ أمنا لمكة والمدينة .

والقصيدة بعدئذ تهنى بالوزارة ، وتحدث عن ابن النبي ،  
وكانه حين وصف الخليفة بذلك كان يريد من صلاح الدين  
ألا يسير إلى أبعاد من خطوة الوزارة ، وأن يبقى الخليفة متربعا  
على عرشه ؛ لأن هوى عمارة كان مع الدولة الفاطمية .  
وقد كان أسلوب عمارة في قصيدته قويا ، وإن كنا نأخذ  
عليه كسف أنوار الغنى ظلمة الفقر ؛ لأن المعهود أن تكسف  
الظلمة النور ، لا أن يكسف النور الظلام .

وكان لوزارة صلاح الدين أولا ، ثم سقوط الخلافة الفاطمية  
وخلوص مصر لصلاح الدين ، واسم يوسف - كان لذلك كله  
أثره في الشعر ؛ كتب العباد الكاتب يهنئه :

أهني الملكَ النَّاصِرَ بالملكِ وبالنصر  
وما مهَّد من بُنيا نِ دين الحقِّ في مصرِ

وما أسداه من برٍّ بلا عدٍّ ، ولا حصر  
وما أحياء من عدلٍ وما خففَ من إضرٍ<sup>(١)</sup>  
وإعلاء سنّ الشنّة في مجبوحه القصر  
قد استولى على مصرٍ بحقٍ يوسفُ العصر  
وأحيا سنّة الإحسا ن في البدو ، وفي الحضر  
فما قطع صلاح الدين الخطبة للعاضد الفاطمي ، وخطب  
للمستضيء العباسي ، نظم العماد قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر ،  
أولها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر  
نائب المصطفى إمام العصر  
وخذلنا لنصرة العضد<sup>(٢)</sup> العا  
ضد ، والقاصر الذي بالقصر  
وأشعنا بها شعار بني العبد  
س ، فاستبشرت وجوه النضر

---

(١) الامر : الثقل . (٢) أراد بالعضد : عضد الدين بن رئيس  
الرؤساء وزير بغداد . قال العماد : ونصرة وزير الخلافة كنصرته .

وتركنا الدّعى يدعى ثبورا<sup>(١)</sup>  
وهو بالذّلّ تحت حجرٍ وحصرٍ  
وتباهت منابر الدّين بالخطـ  
سبةٍ للهاشميّ في أرضٍ مصرٍ  
ولدينا تضاعفت نعم الله  
هـ ، وجأت عن كلّ عدوّ وحصرٍ  
فاغتدى الدّينُ ثابت الرّكن في مهـ  
مرّ محوط الحِمى مَصُون الشّعرِ  
عرف الحقّ أهلُ مصرَ ، وكانوا  
قبله بين منكرٍ ومُقرّ  
والَّذى يدعى الإمامة بالقـ  
هرة انحطّ في حضيض القهرِ  
خانه الدّهرُ في مناه ، ولا يطـ  
سمعُ ذو اللبِّ في وفاء الدّهرِ

---

(١) الثبور : المهلاك والخسران .

ما يُقامُ الإمامُ إلا بحقِّ  
 ما تُحازُ الحسناءُ إلا بمهرٍ  
 خلفاءُ الهدى سراً بنى العبد  
 ساسٍ ، والطَّيِّبُونَ أهلُ الطَّهر  
 هم الدينُ ظافراً مستقيماً  
 ظاهرٌ قوَّةً قرىَّ الظَّهر  
 كشموس الضَّحَى ، كمثل بدور اللة  
 مَّ ، كالشَّخْبِ ، كالتَّجُومِ الزَّهْر  
 قد بلغنا بالصَّبر كلَّ مرادٍ  
 وبلغُ المرادِ عُقْبَى الصَّبرِ  
 دام نصرُ الهدى بملك بنى العَبِّ

ساسٍ ، اُحتى يقومَ يومُ الحشر  
 والقصيدة مفسحة عن شماتة بالخليفة الفاطمى ، وإن كان  
 الشاعر قد لمس كبد الحقيقة عندما جعل الخليفة الفاطمى قاصراً .  
 تحت الحجر والحصر ، وهو لذلك مستضعف ذليل .



والقصيدة مفصحة أيضاً عما كان للخلافة العباسية يومئذ من سلطة روحية على النفوس . برغم ما أصابها من تدهور سياسى ، وضعف نفوذ وسلطان ؛ فأنت ترى الشاعر يتحدث عن المنابر ومباهاتها بالخطبة الهاشمى ، ويعدّ عودة الخطبة إليه تنبئنا لأركان الدين فى مصر ، واعترافا من أهل مصر بالحق ، ثم يصف خلفاء بنى العباس بأنهم خلفاء الهدى وأنهم الطيّبون أهل الطهر ، وأنّ الدين ظافر قوى بهم ، وهم كالشموس ، والبدور ، والنجوم ، والسحب ، ثم يدعو أن يظلوا خلفاء إلى يوم الحشر .

أليس فى ذلك كله مايوحى إلينا بأن وهن السلطان السياسى للخلافة العباسية لم يوهن سلطانها الروحى على النفوس ؟ أو ليس فى ذلك دليل على أن النفوس جميعا كانت تصبو إلى وحدة تجمع القلوب وتؤلف الشتات ؟

وفى القصيدة إشارة أرجو أن أنبّه إليها، تلك هى أنّه نبّ إلى الصّبر الذى بلغ بهم إلى ما يريدونه من الآمال ، وأغلب الظن أنه يشير بذلك إلى ما كان من رغبة جامحة فى تغيير الخطبة ، ولكن صلاح الدين تريث وانتظر ، حتى مهد للأمر ، ثم قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمى .

فلما مات العاضد الخليفة الفاطمى قال العماد أيضا :

توفى العاضدُ الدَّعِيَّ ، فَمَا  
يَفْتَحُ ذُو بَدْعَةٍ بِمَصْرِ فَمَا  
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى وَغَدَا  
يُوسُفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكِمًا .  
وَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْغَوَاةِ ، وَقَدْ  
بَاخَ مِنَ الشَّرِكِ كُلِّ مَا اضْطَرَمَا (١)  
وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَمًا  
بِهَا ، وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظَمًا  
لِمَا غَدَا مُعْلَنًا شَعَارَ بَنِي آلِ  
مُبَاسٍ حَقًّا ، وَالْبَاطِلُ اكْتَمَا  
وَبَاتَ دَاعِي التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا  
وَمِنْ دُعَاةِ الْإِشْرَاقِ مُنْتَقِمًا  
وَعَادَ بِالْمُسْتَضَىءِ مَتَمِّدًا  
بِنَاءِ حَقٍّ قَدْ كَانَ مِنْهُدَمًا

---

(١) باخ : سكن وهذا . واضطرم : التهب .

واعملت الدولة التي اضطهدت

وانتصر الدين بعدما احتضما

واهتز عطف الإسلام من جزل

وافتر ثغر الإيمان ، وابتسما

وروح هذه القصيدة كروح سابقتها التي وصفناها .

أما يوسف ، وهو اسم صلاح الدين ، فقد دعا إلى الأذهان اسم يوسف الصديق النبي الذي وزر لأحد الفراعنة ، ونزلت قصته في القرآن الكريم .

وكان من وجوه الشبه بينهما أن قدم إلى يوسف صلاح الدين وهو بمصر والده وإخوته ، كما قدم على يوسف الصديق والده وإخوته كذلك ، وبما قيل في هذا الشبه آيات لمارة يقول فيها :  
صحت به مصره ، وكانت قبله

تشكو سقاماً لم يُعِنْ بطبيب

عجبا لمعجزة أتت في عصره

والدَّهرُ ولأدَّ لِكُلِّ عجيب

رَدَّ إِلَهُ بِهِ قَضِيَّةَ يَوْسُفَ  
 نَسَقًا عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ  
 جَاءَتْهُ إِخْوَتُهُ وَوَالِدُهُ إِلَى  
 مِصْرَ عَلَى التَّدْرِيجِ، وَالتَّرْتِيبِ  
 فَاسْعَدَ بِأَكْرَمِ قَادِمٍ، وَبَدَوَلَةٍ  
 قَدْ سَاعَدَتْكَ رِيَا حُسَّابِهِ بَوَّبِ  
 وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْحَكِيمُ عَبْدِ الْمَنَعَمِ الْجَلِيلَانِيُّ :  
 فِي مَشْرِقِ الْمَجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ  
 وَكُلُّ أَوْسَائِهِ شُهُبٌ ، فَلَا أَفْلَاوُ (١)  
 جَاءُوا كَيْعَقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ، إِذْ وَرَدُوا  
 عَلَى الْعَزِيزِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَاسْتَمَلُّوا  
 لَكِنَّ يَوْسُفَ هَذَا جَاءَ إِخْوَتُهُ  
 وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نَزْعٌ ، وَلَا زَمَلٌ

---

(١) أَهْلُ النُّجُومِ : عُزْرَبِ .

وَمُلْكُوا أَرْضَ مِصْرَ فِي سَمَاحَتِهِ

وَمِثْلُهَا لِرِجَالٍ مِثْلِهِمْ نَزُلُ<sup>(١)</sup>

وعجارة قد جعل القصة تعود على ضرب من التقريب ،  
أما الجلياني فقد أوضح الفرق بين القصتين ، إذ أقبل إخوة  
صلاح الدين ولم يكن بينهم وبين أخيه من قبل غلٍّ ولا حقد ،  
على العكس من إخوة يوسف الصديق .

ووازن عمارة مرة أخرى بين اليوسفين فقال :

يَاشِيبَةَ الصَّدِّيقِ عَدًّا وَحُسْنًا

وَسَيِّئًا حَكَاهُ مَعْنَى وَمَعْنَى

هَذِهِ مِصْرُ يُوسُفٍ حَلًّا فِيهَا

يُوسُفُ مَالِكًا ، وَمَا حَلَّ سَجْنًا

ولكننا نأخذ على عمارة أنه يشبه صلاح الدين يوسف  
ابن يعقوب في العدل والحسن ، وليس العدل من بين الصفات  
التي شهر بها يوسف الصديق ، ولكنه شهر بحسن تدبير المال  
حتى أنقذ مصر من سنيها المجذبة العجاف ؛ وليس الحسن

---

(١) النذل : المنذل .

، بما يمدح به أبطال الرجال ؛ كما مدحه بأنه يشبهه في الاسم ،  
وليس ذلك مما يوجب المدح والثناء ، ولا في أنه أشبهه في أنه  
مقيم بمصر .

كما دفع الاسم المتحد بين ابن أيوب وابن يعقوب - العماد  
إلى الخطأ في زعمه أن مصر قد صبت إلى عصر يوسف ، إذ قال :  
ولما صَبَّتْ مِصْرُ إِلَى حُكْمِ يُوسُفَ

أعاد إليها الله يوسف والعصر

فأجرى بها من راحتيه بجوده

بجارا ، فسمّاها الوري أنملا عشرًا

فلم يرد الله إلى مصر عصر يوسف المجذب الذي كان كثير  
التقدير والتقتير ، لا عصرًا فاض فيه الجود الذي سماه العماد بجارا .  
فإذا مضى صلاح الدين إلى الشام يريد أن يوحد مصر ،  
بعد وفاة نور الدين محمود ؛ لكي يتهيأ له استرداد فلسطين  
المغتصبة ، فقد أوقع الله في قلبه بعد أن صفت له مصر أن الله  
أراد بذلك أن يهيء له فتح الساحل ، كما تحدّث بذلك  
صلاح الدين ، وأخذ دمشق - قال في ذلك وحيش الأسد  
قصيدة أولها :

قد جاءك النصرُ والتّوفيقُ، فاصطحبها  
 فكنْ لأضعافِ هذا النصرِ مرتقباً  
 لله أنتَ، صلاحَ الدينِ، مِن أسدٍ  
 أدنى فريسته الأيتامُ إن وثباً  
 رأيتَ جِلْقَ<sup>(١)</sup> ثغرا لا نظير له  
 فجتّها عامراً منها الذي خرباً  
 نادتك بالذلِّ لتأقلَّ ناصرها  
 وأزعمَ الخلقُ مِن أوطانها هرباً  
 أحيتها مثل ما أحييت مصرَ، فقد  
 أعدتَ مِن عدِّ لها ما كان قد ذهباً  
 هذا الذي نصرَ الإسلامَ، فاتّضحتْ  
 سبيله، وأهانَ الكُفْرَ والصُّلْبُ  
 ويومَ شاورَ، والإيمانُ قد هُزِمَتْ  
 جيوشُهُ، كان فيه الجحفلُ اللّجِبُ

---

(١) جلق : دمشق .

أَبَتْ لَهُ الضَّيْمَ نَفْسٌ حُرَّةٌ وَيَدٌ  
 قَتَالَةٌ ، وَفَوَادٌ قَطٌّ مَا وَجَبَا<sup>(١)</sup>  
 بِسُكْنَى الْمَدْحِ يُتَلَّى فِي مَكَارِمِهِ  
 زُهْدًا ، وَيَسْتَصْغِرُ الدُّنْيَا إِذَا وَهَبَا  
 وَيَوْمٌ دُمِياطٌ وَالْإِسْكَندَرِيَّةُ قَدْ  
 أَصَارَهُ مِثْلًا فِي الْأَرْضِ قَدْ ضُرِبَا  
 وَالشَّامُ لَوْ لَمْ يَدَارِكْ أَهْلَهُ أَنْدَرَسَتْ

آثَارُهُ ، وَعَفَّتْ آيَاتُهُ جُفْبَا<sup>(٢)</sup>

ونظرة إلى البيت الرابع من هذه القصيدة ربما دلت على  
 ما ساد دمشق من اضطراب بعد موت نور الدين محمود .  
 ولقد جاء صلاح الدين إلى دمشق ومعه تاريخ مجيد تنفتح  
 له قلوب الرعية في دمشق ، فقد انتصر على الفرنج ، وحال بينهم  
 وبين استيلائهم على مصر ، كما ردهم عن دمياط عندما هاجمها  
 من البحر ، وانتصر على شاور ، واستطاع أن يفك الحصار

(١) وجب القلب وجيبا : خلق .

(٢) عفت : اندرست وانمحت . وآياته : علاماته . وحققا : سنين .



الذى فرض عليه بالإسكندرية ؛ وأقام العدل فى مصر ، فكان ذلك كله من الأسباب التى جعلت الرعية فى دمشق يفرحون بمقدمه ، وسجل الشعر نبضات قلوبهم كما رأينا .

ويرى نشو الدولة أبو الفضل بعد أن ملك صلاح الدين دمشق أن الله يعدّه لأمر عظيم ، فقد جعله ميمون الطالع ، « وقابله الإقبال والفتح والنصر » .

وذلك إذ يقول :

أتى بعدمَا نَادَتْ دِمَشْقُ لُبْعِدِهِ

إلى رَبِّهَا : تَاللهِ مَسْنَى الضُّرِّ

فَللهِ حَمْدٌ لَا يَزَالُ مُجَدِّدًا

على ماحبا من فضله ، وله الشُّكْرُ

أَتَنَاحَ لَنَا مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ مَبْرَحٍ

مليكا غدا من بعضِ خَدَامِهِ الدَّهْرِ

وَلَمْ لَا يَحْوَزُ الْأَرْضُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا

وَللهِ فى إِعْلَالِهِ رَتْبَتُهُ سِرٌّ

وإنك لترى هذا الإحساس عند كثير من الشعراء ، تحس

قلوبهم بأنّ صلاح الدين مهيباً لأداء امر عظيم .  
ومن ذلك ما كتبه إليه اسامة بن منقذ من قصيدة قالها بعد  
معركة لصلاح الدين مع الفرنج عند عسقلان :

تهنّ يا أطولَ الملوكِ يدا

في بسطِ عدلٍ ، وسطوةٍ ، وندى  
أجراً وذكراً ، من ذلك الشكرُ في الذُّ

نيا ، ومن ذلك الجنان غدا  
لاستقلّ الذي صنّعتَ فقد

قُمتَ بفرضِ الجهادِ مُجتهدا  
وجُستَ أرضُ العدا ، وأفئنتَ من

أبطالِهِم ما يجاوزُ المددَا  
وما رأينا غزا القرّنج من الـ

ملوكِ في عُقرِ دارِهِم أحدا  
فسيرَ إلى الشامِ ، فإللائكةُ الأبر

رارُ تلقاك مُلتقى حمدا

فهو فقيرٌ إليك يأملُ أن  
تُصلِحَ بِالْعَدْلِ منه مافسدا  
واللهُ يُعْطِيكَ فِيهِ عَاقِبَةَ النَّصَةِ

سرٍ ، كما في كتابهِ وَعَدَا  
فما حباك الوري ، وألهمك العَدْلَ

لَ وَأَعْطَاكَ مَا مَلَكَتْ سُدَى

وجلس صلاح الدين في دار العدل بدمشق يرفع المظالم ،  
ويعيد الحقوق إلى أصحابها ، ويبتل ما كان الولاة قد استجدّوه  
بعد موت نور الدين من الضرائب غير العادلة ، فوقف  
سعادة بن عبد الله يسجل له شهره على العدالة ، ويدعوه بدو  
الملك ، ويقول :

فِي دَارِ عَدْلٍ مُذْ طَلَعَتْ بِأَفْقِهَا  
بَدْرًا جَاوَتْ الظُّلْمَ عَنْ سُكَّانِهَا  
فَبَقِيَتْ مُعْتَصِبًا بِتَاجِ بَهَايَا

فِي دَسْتِ تَجْلِسِهَا ، وَفِي إِيوَانِهَا

ما أَصْبَحَتْ أَيْدَى الرَّعِيَّةِ تَجْتَنِي

عَفْوَاً ثَمَّارَ الأَمْنِ مِنْ بُسْتَانِهَا  
ويقف الشاعر في اليوم التالي فيدعوه إلى أن يضم حلب  
إلى سلطانه ، ويقول له :

واخْطُبْ بِحَدِّ المَوَاضِي كُلِّ شَاخِجَةٍ  
فِي أَنْفِهَا شَمٌّ ، فِي جِيدِهَا غَيْدٌ<sup>(١)</sup>  
فَمَنْ يَكُنْ بِالْمَوَاضِي خَاطِباً أَبَداً  
زُفْتُ إِلَيْهِ بِلَادُ كُلِّهَا خُرُودٌ<sup>(٢)</sup>

هل بعد جَلَّقَ إِلَّا أَنْ تَرَى حَلِبا  
وَقَدْ تَحَلَّلَ مِنْهَا مُشَكِّلٌ عَقْدُ  
وَقَدْ أَتَتْكَ كَمَا تَخْتَارُ ، طَائِعَةً  
وَقَدْ عَنَّا<sup>(٣)</sup> لَكَ مِنْهَا الْحَصْنُ وَالْبَلَدُ

كما دعاه إلى حلب أيضا أبو الفضل بن حميد الحلبي ، فقال  
له من قصيدة :

---

(١) الغيد : ميل العنق . (٢) الخرد : جمع خريدة ، وهي : البكر .  
(٣) عنا : خضع .

يَا بْنَ أَيُّوبَ ، لَا بَرَحَ مَدَى الدَّهْ

رِ رَفِيعَ الْمَكَانِ وَالسَّلْطَانِ

حَلَبُ الشَّامِ نَحْوَ مَرَاكٍ وَلَهُيْ

وَلَهُ الصَّبُّ رِيعَ بِالْهَجْرَانِ

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة ، يحرّضه على فتح

حلب أيضا :

دُونَكَ وَالْحَسَنَاءُ أُمَّ الْقُرَى

وصخرها الأثمب ، والطود الأشم

واركب إلى العلياءِ كُلَّ صَعْبَةٍ

أَبَيْتَ لَعْنًا ، وَخَلَاكَ كُلُّ ذِم

مُدًّا إِلَى أُخْتِ الشَّهَاءِ <sup>(١)</sup> زُورَةً

لَا فَرْقَ <sup>(٢)</sup> يَعْقُبُهَا ، وَلَا نَدَم

إِيهِ صَلَاحِ الدِّينِ ، شُدَّ أَرْزَاهَا

وَاعَزَمُ عَلَيْهَا ، فَالزَّمانُ قَدْ عَزَمَ

(١) الشَّهَاءُ : ممدود السها ، وهي كوسب خفي من بنات نعلش .

(٢) الفرق : الخوف .

ودونك المنعة من قبائها  
وبآبائها المفلق في وجه الأمم  
ويعضى صلاح الدين إلى حلب ، ويستولى على قلعتها ، ويقول ،  
وهو يصعد إليها : والله ، ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح  
هذه المدينة ، والآن قد تبينت أننى أملك البلاد ، وعلمت أن  
ملكى قد استقر وثبت ؛ ويجلس لتقبل التهئة ، فينشده يوسف  
البراعى قصيدة منها :

شرفت بسامى مجدك الشهباء  
وتجللتها بهجة وضاء  
ألت إليك قيادها ، وبها على  
كل الملوكة ترفع وإباء  
وينشده سعيد بن محمد الحريرى قصيدة منها :

وصبخت شهباء العواصم مصلتا  
قواضب عزم لا يغل شهرها<sup>(١)</sup>

(١) صبحه : جاءه صباحا . والقواضب : جمع قاضب ، وهو : السيف  
القطاع . وفل السيف : ثلمه . والقهير : المشهور ، من شهر السيف ؛  
رفعه على الناس .

فأطيت منها غاربا<sup>(١)</sup> فيك راغبا  
 وعاد يسيرا في يدك عسيها  
 ورد إليها روح عدلِكَ روحها  
 وكانت رَمِيما لا يُرَجى نُشورها  
 وقال أبو طى النّجارُ من قصيدة يبين فيها مكانة حلب :  
 حَلَبُ شامةِ الشّامِ ، وقد زِي  
 دَت جاللا يوسُفٍ وجالا  
 هي أَسُ الفَخارِ مَنْ نال أعلا  
 ها تَعَالَى نَفْصامَةً ، وتَعَالَى  
 ومحلُّ العَلاءِ ، مَنْ حَلَّ فيها  
 تاهَ كبرا وعزّةً وجلالا  
 مَنْ حواها مُملَكا مَلَكَ الأَز  
 ضَ اقْتَسارا<sup>(٢)</sup> : سُهُولةً وجبالا

(١) أمطى الدابة : ج. لها مطبة . والغارب : ما بين السنام الى العنق .

(٢) الاقتسار : القهر .

والشعراء هنا قد سَجَلُوا لِحلب الشهباء مناعتها وقيمتها بين  
البلاد ، وغالى بعضهم فجعل من يملكها قديرا على امتلاك الأرض  
كلها سهلها وجبلها .

وقد رأى الشعراء أن فى توحيد صلاح الدين للبلاد تحت  
حكمه صلاحا لهذه البلاد نفسها ، بعد أن شقيت هذه البلاد بحكام  
لا يصلحون لتدبير الملك ، ولا لإدارة شئون الرعية ، يصف  
ذلك ابن سناء الملك فيقول :

ممالكٌ لم يدبّرْها مدبّرُها

إلا برأى خصيٍّ أو بعقلٍ صبيٍّ

حتى أنها صلاحُ الدين، فانصلحتْ

من الفسادِ ، كما صحّتْ من الوَصَبِ (١)

وفى هذا التوحيد إجلاء لظلمة طال ليلها على الإسلام ؛ يقول  
العقاد من قصيدة يصور فيها توحيد صلاح الدين للبلاد تحت  
رايته ، وخروجه من ظفر إلى ظفر ، ثم يتنفّس الصعداء ،  
ويقول له :

وجلٌّ عن المسلمين ليَلَمُّهم المدحجي

---

(١) الوصب : المرض .



ويرون في هذه الفتوح وتوحيد كلمة البلاد تمهيدا لفتح  
القدس ، ونصر كلمة الإسلام ، فهذا الفتح به تتم الفتوح ، وهو لها  
الغاية والأمل ، يقول العماد من قصيدة :

بفتوحِ عصرِكَ يَفْخَرُ الإسلامُ

وبنورِ نصرِكَ تُشْرِقُ الأيامُ

أسدى صلاحُ الدين والدُّنيا يدا

بنوالِها سوقُ الرِّجاءِ تُقامُ

فتملّ فتحك ، واقصد الفتحَ الذي

بمُصُولِهِ لِفَتْوحِكَ الإِتمامُ

دُمُ للعلا ، حتّى يدومَ نظامُها

واسلم ، يَعِزُّ بنصرِكَ الإسلامُ

لقد تبع الشعر خطى صلاح الدين ، وسجل ما بذله من  
الجهود في سبيل توحيد سورية ومصر ، حتى اتحدا تحت رايته  
الصفراء اللون ، التي يقول فيها علم الدين الشاتاني :

غدا النَّصْرُ معقودا برايتِكَ الصَّفْرا

فَسِرْ ، وافتحِ الدُّنيا ، فأنت بها أحرى

وظل يتبع خطاه طول حياته ، لا تكاد تجد حدثا هاما لم يأخذ الشعر بتصيب فيه ، ويكون صدى لشعور الشعراء إزاء هذا الحدث . بل لقد شارك الشعر في أمور ليس لها أهمية تاريخية ، فقد عمر صلاح الدين بمصر حمّاما ، فكتب العرقلة على هذا الحمام تلك الأبيات :

يَا دَاخِلَ الْحَمَّامِ ، هُنَّيْتَهَا<sup>(١)</sup> دَائِرَةً كَالْفَلَكَ الدَّائِرِ  
تَأْمَلِ الْجَنَّةَ قَدْ زُخْرِفَتْ وَعُمِّرَتْ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ  
كَأَنَّمَا فِيضُ أَنْيَابِهَا نَدَاهُ لِلْوَارِدِ وَالصَّادِرِ

تحدث الشعر عن معارك مع الفرنج ، وما تم بينه وبينهم من هدنة ، وسوف نتحدث عن ذلك في فصل خاص . ولكن نرى قبل ذلك أن نتحدث عن الآمال التي عقدت عليه ، وأفصح عنها الشعراء في قصائدهم .

## - ٢ -

فند وليّ صلاح الدين حكم مصر عقيد الشعر عليه الأمل في طرد الصليبيين من الساحل وفتح بيت المقدس ، وانتزاعه من يد الفرنج ، يقول له العباد مرة :

---

(١) أنث الشاعر الحمام ، مع أنه مذكر .

وما يَرتَوِي الإسلامُ حتى تَغادِرُوا  
لِسُكْمٍ مِنْ دَماءِ الغادرين بها عُذْرًا  
فصُتُّوا على الإفْرِجِ سَوَاطِ عذابِها  
بأن يَفْسِمُوا ما بينَها القَتْلَ والأَمْرَ  
ولا تُهْمِلُوا البيتَ المُقدَّسَ ، واعرِزُوا  
على فَتْحِهِ غازين ، وافتزعوا البِكرَ  
ويقول له أخرى :

يا مُنْجِلَ البَحْرِ بِالأَيَادِي  
قَدْ آنَ أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلَ  
فقدَّسَ المُقدَّسَ مِنْ خِباتِ  
أرجاس كُفْرٍ غُتْمٍ أراذلِ  
ويقول له عُمارةُ المِنيّ بعد أن غزا صلاح الدين غَزَّةَ  
وعسقلان :

لعلَّ بنى أيُّوبَ لَمْ يَعْلَمُوا بما  
تظَلَّمتُ مِنْهُ أن يَرْقُوا وَيُشْفِقُوا

غَزَوْا عُقْرَ دَارِ الْمُشْرِكِينَ بِغَزَّةٍ  
 جِهَارًا، وَطَرَفُ الشَّرِّكِ خَزْيَانُ مُطْرِقُ  
 وَزَارُوا مُصَلَّى عَسْقَلَانَ بِأَرْعَنِ  
 يَفِيضُ إِنْاءُ الْبَرِّ مِنْهُ ، وَيَنْفَقُ<sup>(١)</sup>  
 وَكَانَتْ عَلَى مَا شَاهَدَ النَّاسُ قَبْلَهُمْ  
 طَرَائِقَ مِنْ شَوْكِ الْقَنَا لَيْسَ تُطْرَقُ  
 وَمَا عَصَمَتْهُمْ مِنْكَ إِلَّا مَعَاوِلُ  
 تَأَنَّنُوا عَلَى تَحْصِينِهَا ، وَتَأَنَّنُوا  
 أَضْفَتَ إِلَى أَجْرِ الْجِهَادِ زِيَارَةَ  
 يَخْلِيلٍ ، فَأُبَشِّرْ ، أَنْتَ غَازٍ مُوَفَّقُ  
 وَهَيَّجْتَ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَوْعَةً  
 يَطُولُ بِهَا مِنْهُ إِلَيْكَ التَّشَوُّقُ  
 تَنْشَقُّ مِنْ مَلَقَاكَ أَعْظَمَ نَفْحَةٍ  
 تَطْيِبُ عَلَى قَلْبِ الْهُدَى حِينَ تَنْشَقُ

---

(١) الأثر من : الجبل الطويل . وفقه الإناء : امتلاء .

وَعَزَّوْكَ هَذَا سُلَّمٌ نَحْوَهُ فَتَحِهِ  
 قَرِيبًا ، وَإِلَّا رَأَيْدُهُ ، وَمُطَرِّقُ (١)  
 هُوَ الْبَيْتُ إِنْ تَفَتَّحَهُ ، وَاللَّهُ فَاعِلُهُ  
 فَمَا بَعْدَهُ بَابٌ مِنَ الشَّامِ مُغْلَقٌ

وَيَقُولُ الْعَمَادُ :  
 فَسِرْ وَافْتَحِ الْقُدْسَ ، وَاسْفِكْ بِهِ  
 دِمَاءَ مَتَى تُجَرِّهَا يَنْظِفُ  
 وَخَلَّصَ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَا  
 دَ يُخَلِّصُكَ اللَّهُ فِي الْمَوْقِفِ

وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يَعْقِدَ النَّاسُ آمَالَهُمْ عَلَى مَنْ يَحْكُمُ مِصْرَ  
 أَنْ يَفْتَحَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ ، وَيَسْتَرِدَّ السَّوَاهِلَ ؛ فَإِنْ عِنْدَهُ مِ  
 الْإِمْكَانِيَّاتِ مَا يَمُهِدُ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمُالِ ، وَق  
 وَجَدَ مِنْ وَزَرَاءِ مِصْرَ مَنْ جَعَلَ مِنْ أَهْدَافِهِ الْكُبْرَى اسْتِرْدَادَ  
 فِلَسْطِينَ وَطَرْدَ الْغَاصِبِ ، كَالْوَزِيرِ الْمِصْرِيِّ طَلَّاعِ بْنِ رِزْيَكٍ ،  
 فَقَدْ كَانَتْ سِرَايَاهُ تَتَرَى إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ أَمَانِيهِ

---

(١) مطروق : طريق مهدي .

أن يعقد مع نور الدين محمود معاهدة يهاجمان بها الفرنج، نور الدين من الشمال ، وطلائع من الجنوب ، وبذلك يدفعان العدو إلى الحرب في جبهتين معا، فيقضيان عليه ، ويقذفان به إلى البحر ، ولكن حال دون هذا الاتفاق اختلاف العقائد بين الاثنين : فنور الدين سُنيّ ، وطلائع شيعيّ . فلما جاء صلاح الدين راود الأمل النفوس في أن يتحقق على يديه آمال طلائع .

ولما انضمت دمشق إلى ملكه زاد الأمل فيه رسوخا، ودماه الشعراء إلى استعادة الوطن السليب . يقول له سعيد بن عبد الله :

فاسلم صلاح الدين ، وابقَ لِدَوْلَةٍ

ذَلَّتْ لِدَوْلَتِهَا مَلُوكُ زَمَانِهَا

وانهضْ إلى فتحِ السَّوَاخِلِ نهضةً

قَادَتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ بَعْدَ حِرَانِهَا

فإذا فتح صلاح الدين بيت المقدس وضع الشعر فيه أمله أن يجتث أصل الفرنج من باقي ديار فلسطين، إذ يقول له العماد :

قل للمليكِ صلاح الدين أكرم مَنْ

يمشَى على الأرض ، أَوْ مَنْ يركبُ الفَرَسَا :

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى  
 «صور» فإن فتحت فأقصد «طرابلسا»  
 أتر على يوم «أنطرسوس» ذا لب  
 وابعث إلى ليل «أنطاكية» العسا  
 وأخل ساحل هذا الشام أجمعه  
 من العلماء ومن في دينه وكسا<sup>(١)</sup>  
 ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا  
 فإنهم يأخذون النفس والنفسا  
 وكلما فتح صلاح الدين بلاد دماه الشعر إلى فتح ما بقى في  
 العدو؛ حتى إذا بقيت «صور» التي تجمع إليها الفرنج من  
 حذب ينسلون قال له فتیان الشاغوري :  
 فانهض «لصور»؛ فهي أحسن صورة  
 في هيكل الدنيا بدت لمصور  
 ماسور «صور» عاصم منه، وهل  
 سور المعاصم عاصم لمصور

---

(١) وكس : نقص .

وإذا كان الشعراء قد وضعوا آمالهم في صلاح الدين ان  
يفتح على يديه ما اغتصبه الفرنج من أرض الوطن فقد رأينا  
بعض الشعراء لا يقف عنده حدود هذا الأمل ، بل يمتد به  
الطموح إلى توحيد العالم الإسلامي تحت راية صلاح الدين ،  
ويرى هذا البطل هو الجدير بحكم هذا العالم الإسلامي ،  
وقد رأيت هذا الطموح في شعر العماد الذي استبشر بفتح  
صلاح الدين للقدس ، فرأى في فتح هذا البلد العصي ما يجعل  
فتح غيره من الأقطار هينا على صلاح الدين ؛ فقال له :

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَكَ أَصْبَحْتَ

كَلَاءَتُهُ دِرْعًا ، وَعَصْمَتُهُ تَرْسًا

وَلَا تُنْسِ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبَكَ مُرُوبًا

بِمَاءِ الطُّلَى مِنْ صَادِيَاتِ الظُّبَا الْخَمْسَا<sup>(١)</sup>

وإن بلادَ الشَّرْقِ مُظْلَمَةٌ ، نَغْذُ .

خراسان ، والنهرين ، والترك ، والفرسا

---

(١) الطلى : الاضحاك . والظبا : جمع ظبية ، وهي حد السيف وغرب كل

شيء : حده .



لقد بلغ صلاح الدين في نفوس الشعراء مبلغاً كبيراً ، ورأوه  
جديراً بأن يكون حاكم بلاد الإسلام ، بدل ما كان في عهده  
من حكام صغار .

بل رآه بعضهم جديراً بملك الأرض ، فقال الحكيم أبو الفضل :  
وَمَنْ أَحَقَّ بِمُلْكِ الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ

كَأَنَّهُ مَلَكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَّانٌ

ويدعوه الشعر أن يصحبه التوفيق أينما كان ، فيقول له  
الشاعر عقيل بن يحيى :

أَطَاعَتْكَ أَطْرَافُ الرِّدِّيَّةِ<sup>(١)</sup> الشُّمْرِ

وَسَالَمَكَ التَّوْفِيقُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَعِشْتَ مَدَى الْأَيَّامِ لَا قَالَ قَائِلٌ

كِبَابِكَ زَنْدٌ فِي عَظِيمٍ مِنَ الْأَمْرِ

— ٣ —

ولا تكاد معركة من معاركه مع الفرنج لم يقل فيها الشعراء  
شعراً يصورها ويخلدها ، حتى صغار المعارك قيل فيها الشعر الذي  
صور إحساس الناس إزاءها .

---

(١) الرديئة : الرمح .

فَئِذْ مَعْرَكَةٌ دِمِيَاطُ الَّتِي أَبْلَى فِيهَا صَلاَحُ الدِّينِ بِلَاءَ حَسَنًا ،  
عِنْدَمَا كَانَ وَزِيرًا لِلْعَاضِدِ ، إِلَى أَنْ عَقَدَتِ الْهَدَنَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ  
الْإِنْجِلِيزِ : رِيْتشارْد قَلْبِ الْأَسَدِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِقَلِيلٍ ؛ تَغْنَى الشَّعْرُ  
بِمَعَارَكِهِ مَعَ الْفَرَنْجِ .

فَفِي أَوَّلِ صَفَرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسَمِائَةٍ نَزَلَ الْفَرَنْجُ عَلَى  
دِمِيَاطٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْلِكُوهَا لِيَكُونَ لَهُمْ مَوْطِئٌ قَدِمٌ يَاوُونَ  
إِلَيْهِ ، فَقَدْ خَافُوا مِنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ أَنْ تَتِمَّ بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ بَعْدَ  
أَنْ انْتَصَرَ أَسَدُ الدِّينِ شَيْرَكُوهُ فِي مِصْرَ ، وَأَرْسَلَ فَرَنْجُ السَّاحِلِ  
إِلَى الْفَرَنْجِ الَّذِينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَصَقْلِيَّةَ يَسْتَمْدُونَهُمْ ، وَيُخَبِّرُونَهُمْ  
بِمَا تَجِدُ مِنْ أَمْرِ مِصْرَ ، وَأَنَّهُمْ خَائِفُونَ عَلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ أَنْ  
يَسْقُطَ فِي أَيْدِي الْمَسَامِينِ ، وَأَرْسَلُوا جَمَاعَةً مِنَ الْقَسُوسِ  
وَالرَّهْبَانِ ، يَحْرِضُونَ النَّاسَ عَلَى الْحَرَكَةِ ، فَأَمْدَوْهُمْ بِالْمَالِ  
وَالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ ، وَرَأَوْا النُّزُولَ عَلَى دِمِيَاطٍ ؛ ظَنُّوا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ  
يَمْلِكُونَهَا ، وَيَتَّخِذُونَهَا ظَهْرًا يَمْلِكُونَ بِهِ دِيَارَ مِصْرَ ، فَلَمَّا نَزَلُوهَا  
حَصَرُوهَا ، وَضَيَّقُوا عَلَى مَنْ فِيهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا صَلاَحُ الدِّينِ  
الْجُنْدَ فِي النَّيْلِ ، وَمَلَأَ دِمِيَاطَ الْمَقَاتِلَةِ مِنَ الْأَبْطَالِ وَالْفَرَسَانِ ،  
وَأَمَدَّهُمْ بِالْمَالِ وَالسَّلَاحِ وَالذِّخَائِرِ ، وَأَخَذَ صَلاَحُ الدِّينِ يَشْنُ  
الْغَارَاتِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَارِجِ ، وَالْجُنْدُ يُقَاتِلُونَهُمْ مِنَ الدَّخْلِ ،

حتى ظهر المصريون على اعدائهم ، ورحل الأعداء عن دمياط  
في الحادى والعشرين من ربيع الأول ، بعد حصار وعراك  
دام خمسين يوما ؛ فقال عمارة العيني :

مَنْ شَاكِرٌ ، وَاللَّهُ أَعْظَمُ شَاكِرٍ  
مَا كَانَ مِنْ نِعْمَتِي بَنَى أَيُّوبِ  
طَلَبَ الْهُدَى نَصْرًا ، فَقَالَ ، وَقَدْ أَتَوْنَا :

حَسْبِي ، فَأَتَمَّ غَايَةَ الْمَطْلُوبِ  
جَلُّوْا إِلَى دَمِيَاطَ عِنْدَ حَصَارِهَا  
عِزَّ الْقَوَى ، وَذَلَّةَ الْمَغْلُوبِ  
وَجَلَّوْا عَنِ الْإِسْلَامِ فِيهَا كَرْبَةً  
لَوْ لَمْ يُجَلُّوْهَا أَتَتْ بِكَرُوبِ

والشاعر يعترف بفضل الأيوبيين في الدفاع عن دمياط ،  
ويثبت ما كان لإجلاء الفرنج عن دمياط من أثر في كبح جماح  
طغيانهم ، والحد من أطماعهم .  
أما الشهاب فتيان الشاغورى فيقول من قصيدة :

ولمّا اتّوا دِمياطَ كالبحرِ طامياً  
 وليس له من كثرة القومِ ساحلٌ  
 يزيدُ عن الإحصاءِ والعدِّ جُمعُهم  
 ألوفُ ألوفٍ خيأُهم والرواحِلُ  
 رأوا دونهم أسداً بأيديهم القنا  
 وبيضا رفاقاً أحكمتها الصِّياقلُ<sup>(١)</sup>  
 وداروا بهافي البحرِ من كلِّ جانبٍ  
 ومن دونها سدٌّ من الموتِ حائلٌ  
 رجالُ الكلبِ مُلكُ الرُّومِ إذ ذاك فتَحَصَّها  
 نخافُ ، فأَمَّ المُلْكُ والرُّومَ هابلُ  
 فعادوا على الأعقابِ منها هزيمةً  
 كأنَّهم ذُلٌّ نعامٌ جَوَافِلُ<sup>(٢)</sup>  
 وما أمَلُوا أن يَلْحَقُوا ببلادِهِم  
 لتَقْصِمَهُم مّا رأَوْهُ المَعاقِلُ

(١) الصِّياقلُ : جمع صيقل ، وهو : صانع السيف .

(٢) جَوَافِلُ : جمع حافل ، وهو : المتصرع .

والشهاب هنا يصور الجمع الذي حشده الفرنج فجعله كالبحر  
الطامى ، وقد استقبلهم الجيش المصرى فى شجاعة نادرة ، وسلاح  
كامل ماض ؛ كما صور حصار الفرنج دمياط ، وما كان يدور فى  
نفوسهم من الآمال فى الاستيلاء عليها ، ثم عودتهم عنها  
أذلاء مهزومين .

ويهتف العهاد صلاح الدين بنصره على الفرنج فى دمياط ،  
فيقول له من قصيدة :

يا يوسفَ الحسن والإحسانِ ، ياملكاً  
بجده صاعداً ، أعداؤه هبطوا  
هَئِيتَ صَوْنَكَ دَمِياطَ الَّتِي اجْتَمَعَتْ  
لَهَا الْفَرَنْجُ ، فَا حُلُّوا وَلَا رَ بَطُّوا  
ويرسل إليه قصيدة أخرى يقول له فيها :  
وَحُطَّتْ دَمِياطَ إِذْ أَحَاطَ بِهَا  
مَنْ بَرُجُومِ الْبَلَاءِ يَقْدِرُهَا  
لَا قَتَ غَوَاةُ الْفَرَنْجِ خَيْبَتَهَا  
فَزَادَ مِنْ حَسْرَةٍ تَأْسُفُهَا

أوردت قلبَ القلوبِ أرشيّة<sup>(١)</sup>  
 من القنأ للدماءِ تنزفُها  
 يُمضي لك الله في قتالهم  
 عزيمةً للجهادِ تُرهفهم

والعماد هنا يصور ما أعده العدو من أدوات الفتك والتدمير  
 لدمياط ، ثم ملاقاته من خيبة الأمل أمام ما كان للجيش المصري  
 من أسلحة ماضية حطمت آمال المعتدين .

فلما فتحت طبرية وهزم الفرنج عند حطين سنة ثلاث وثمانين  
 وخمسمائة ، تقدم الشعر مهنثا صلاح الدين ذا كرا فضله وبلاءه في  
 المعركة ، فمن قال في هذا الفتح على بن الساعاتي ، فقد أنشأ  
 قصيدة جاء فيها :

جَلَتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمُبِينَا  
 فَقَدْ قَرَّتْ عِيُونَُ الْمُؤْمِنِينَا  
 رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الْإِسْلَامِ لِمَا  
 غَدَا صَرْفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا

---

(١) أرشيّة : جمع رشاء ، وهو الحبل ، ويريد بالأرشيّة : السيوف والرماح .

يَقَاتِلُ كُلُّ ذِي مُلْكٍ رِيَاءَ  
وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينَا  
غَدَّتْ فِي وَجَنَةِ الْأَيَّامِ خَالًا  
وَفِي جِيدِ الْعُلَا عِقْدًا تَمِينَا  
فِي اللَّهِ ، كَمْ سَرَّتْ قُلُوبًا  
وَيَاللَّهِ ، كَمْ أَبَكَّتْ عُمُونا  
وَمَا طَبِيرِيَّةٌ إِلَّا هَدْيِي<sup>(١)</sup>  
تَرْفَعُ عَنْ أَكْفِ اللَّامِسِينَا  
حَصَانُ الذِّيلِ لَمْ تُقَذَّفْ بِسُوءِ  
وَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَا  
فَضَضْتَ خِتَامَهَا قَسْرًا ، وَمَنْ ذَا  
يَصُدُّ اللَّيْثَ أَنْ يَلْجَ الْعَرِينَا  
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهَا  
وَصَدَقْتَ الْأَمَانِي وَالظُّنُونَا

---

(١) الهدى كفى : العروس .

تَهْزُ مَعَاظِفَ الْقُدْسِ ابْتِهَاجًا  
 وَتُرْضِي عَنْكَ مَكَّةَ وَالْحَجُّونَا<sup>(١)</sup>  
 فَلَوْ أَنَّ الْجَادَ يُطِيقُ نُطْقًا  
 لَنَادَتْكَ : ادْخُلُوهَا آمِنِينَ  
 جَعَلَتْ صَبَاحَ أَهْلِهَا ظِلَامًا  
 وَأَبْدَلَتْ الزَّيْرَ بِهَا أُيُنَا  
 تَحَالُ حُمَاةَ حَوَازَتِهَا نِسَاءً  
 يَخُوضُونَ الْحَدِيدَ مُقْنَعِينَ  
 لِبَيْضِكَ<sup>(٢)</sup> فِي جَمَاجِمِهِمْ غِنَاءً  
 لَذِيذُ عِلْمِ الطَّيْرِ . الْحَيْنِئًا  
 تَمِيلُ إِلَى . الْمُتَّقَةِ الْعَوَالِي  
 قَهْلُ أُمْسَتْ رِمَاحًا أَمْ غُصُونًا  
 يَكَادُ النَّقْعُ يَذْهَبُهَا ، فَلَوْلَا  
 بُرُوقُ الْقَاضِيَاتِ<sup>(٣)</sup> لَمَّا هُدِينَا

(١) الحجون : جبل بمكة .

(٢) البيمض : السيوف .

(٣) القاضيات : السيوف القاطعة .



فَكَمْ حَازَتْ قُدُودُ قَنَّاكَ مِنْهَا  
 قُدُودًا كَالْقَبَا : لَوْنَا وَلِينَا  
 وَغَيْدٍ كَالْجَاذِرِ آتِسَاتٍ  
 كَغَيْدٍ نَدَاكَ أَبْكَارًا وَعُونَا  
 وَلَمَّا بَاكَرْتَهَا مِنْكَ نُعْمَى  
 بَنَانٍ تَفْضَحُ الْعَيْثَ الْهَتُونَا  
 أَعَدَّتْ بِهَا اللَّيَالَى وَهِيَ بِيضٌ  
 وَقَدْ كَانَتْ بِهَا الْأَيَّامُ جُونَا<sup>(١)</sup>  
 فَلَا عَدِمَ الشَّامُ وَسَاكِنُوهُ  
 ظُبَى تَشْفَى بِهَا الدَّاءَ الدَّافِينَا  
 سُهَادُ جُفُونِهَا فِي كُلِّ فَتْحٍ  
 سُهَادٌ يَمْنَحُ الْغَمَضَ الْجُفُونَا

---

(١) الجون : السود .

فَأَلِمَ بالسَّوْاحِلِ ، فَهِيَ صُورٌ  
 إِلَيْكَ ، وَأَلْحِقْ الهَامَ الْمُتُونَا  
 فَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ ، وَلَوْلَا  
 سَطَاكَ لَكَانَ مَكْتَنِبًا حَزِينًا  
 أَدْرَتْ عَلَى الْفَرَنْجِ ، وَقَدْ تَلَاَقَتْ  
 جُحُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا  
 فِي « يَيْسَانَ » ذَا قُؤَامِكَ بُؤْسًا  
 وَفِي « صَفَدِي » أَتَوَكَ مُصَفَّدِينَا  
 لَقَدْ جَاءَهُمُ الْأَحْدَاثُ جَمْعًا  
 كَأَنَّ صُرُوفَهَا كَانَتْ كَمِينَا  
 وَخَانَهُمُ الزَّمَانُ ، وَلَا مَلَامَ  
 فَلَسْتُ بِمُبْغِضٍ زَمَنًا حَتُونَا  
 لَقَدْ جَرَّدَتْ عِزْمًا نَاصِرِيًا  
 يُحَدِّثُ عَنْ سَنَاهُ طُورُ سِينَا

فَكُنْتَ كَيُوسُفَ الصَّادِقِ حَقًّا  
 لَهُ هَوَاتِ الْكَوَاكِبُ سَاجِدِينَ  
 لَقَدْ أَتَعَبْتَ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالَى  
 وَحَاوَلَ أَنْ يَسُوسَ الْمُسْلِمِينَ  
 وَإِنْ تَكُ آخِرًا ، وَخَلَائِكَ ذَمًّا  
 فَإِنَّ مُحَمَّدًا فِي الْآخِرِينَ

والشاعر في هذه القصيدة يمجّد عزّمات صلاح الدين التي  
 كان من آثارها هذا الفتح المبين ، ويبيّن أثر هذا الفتح في نفوس  
 المؤمنين ، فقد قرّت به أعينهم ، ولم لا تقرّ عيونهم ، وقد رد  
 صلاح الدين إلى الإسلام ما أخذ منه .

ويقف الشاعر معجبا بنخلة من خصال صلاح الدين ،  
 تلك هي عقيدته التي تدفعه إلى قتال عدوه ، فهو لا يريد بقتالهم  
 رياء ولا سمعة ؛ ولكنه يخوض غمرات القتال مدافعا عن  
 عقيدته ودينه .

ويصف الشاعر المعركة بأنها تجلّ الأيام ، وتتميز بين  
 المعالي ، وترينها .

وبين اثر هذه المعركة في النفوس فيينا هي قد سرت نفوس  
المؤمنين ، أبكت عيون الفرنج المهزومين .  
ويصور الشاعر طبرية بالعروس .

ويعضى متحدثا عن هذا الفتح الذى حقق به البطل آمال  
المسلمين ، وجعل بلاد الإسلام تهتز ابتهاجا بالنصر المبين .  
ويتحدث الشاعر عن المعركة ومن أسر فيها ، ويدعو للبطل  
إن تظل سيوفه تفتح البلاد ، ويحمله على فتح ما بقى من بلاد  
الساحل . ويسجل ما سبق أن فتحه صلاح الدين مما كان  
في يد الفرنج .

ويفرح الشعر بخذلان العدو ، ومجىء الأحداث متوالية  
بهزيمتهم .

ويسجل للبطل الفاتح ما بلغه من مجد يتعب من يريد  
الوصول إلى مثله ، ولا يضيره أن يأتى في الزمن الأخير ، فقد  
جاء محمد آخر الأنبياء والمرسلين .

ومن قصيدة للشهاب فتیان الشاغورى يصف معركة حطين :  
جاشت جيوشُ الشركِ يومَ لقيتهمْ

يقتدأمرُونُ على مُتُونِ الضَمْرِ<sup>(١)</sup>

---

(١) التذامر : التحاض على القتال . والضمير : جمع شامر ، وهو الفرس الخفيف اللحم .

أوردت أطراف الرِّمَاحِ صُدُورَهُمْ  
 فولَّغْنَ فِي عِلَاقِ النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ (١)  
 فهناك لم يرَ غَيْرُ نَجْمٍ مُقْبِلٍ  
 فِي إِثْرِ عَفْرِيتٍ رَجِيمٍ مُدْبِرٍ  
 فَمَنْ الذِي مِنْ جِيشِهِمْ لَمْ يُخْزَرْ (٢)  
 وَمَنْ الذِي مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُؤْسَرْ  
 حَتَّى لَقَدْ بَيَّعَتْ عَقَائِلُ أَرْهَقَتْ  
 بِالسَّجْيِ بِالثَّمَنِ الْأَخِيسِ الْأَحْقَرِ  
 لَا يَعْدُ مِنْكَ الْمَسْلُومُونَ ، فَكَمْ يَدًا  
 أَوْلَيْتَهُمْ مَعْرُوفَهُمْ لَمْ تُنْكَرِ  
 آمَنْتَ سِرِّيَّتَهُمْ ، وَصُنْتَ حَرِيمَهُمْ  
 وَدَرَأْتَ عَنْهُمْ قَاصِمَاتِ الْأُظْهِرِ  
 مَا إِنْ رَأَىكَ اللَّهُ إِلَّا آمِرًا  
 فِيهِمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَمُنْكَرٍ مُنْكَرِ

(١) العلق : الدم الغليظ . والنجيع : الدم .

(٢) اخترم القوم : استأصلهم

مبتواضعاً لله جلَّ جلاله  
 وبك اضمحلت سطوة المتكبر  
 لم يخلُ سمعٌ من هناءٍ مهني  
 للمسلمين ، ومن سماعٍ مبشر  
 واستعظم الأخبار عنك معاشرة  
 فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر  
 مضت الملوك ، ولم تنل عُشرَ الذي

أوتيته من منجج أو مفخر<sup>(١)</sup>  
 والشاعر هنا يصور الأعداء وقد مضوا بين قتيل وأسير ، وقد  
 نجم عن كثرة الأسر أن بيعت الأسيرات بأبخس الأثمان . ويذكر  
 التاريخ أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم  
 يومئذ واحد بنعل<sup>(٢)</sup> . وتسجل القصيدة ما لصالح الدين من  
 آثار بيضاء على المسلمين في ذلك الحين ، فقد جعلهم يأمنون بعد  
 خوف ، ويطمثون على سلامة حريمهم ، وصيانة نسائهم ، ودفع  
 عنهم شر الفرنج وما كان المسلمون يجدونه منهم من العنت والمشقة .

(١) المنجج : النجاح

(٢) الروشتين ٢ : ٨٢

وتشيد القصيدة ببعض صفات البطل من انقياده لأمر الدين ،  
وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وما كان يتصف به من  
تواضع برغم تحطيمه قوى الباغين المتكبرين . وتصور أثر المعركة  
الناجحة في قلوب المساميين ، وبهجتهم بها ، وتوازن بين صلاح الدين  
ومن سبقه من الملوك .

ومما ينبغي أن يوجه إليه النظر أن الشعراء الذين تحدثوا عن  
معركة بيت المقدس التي دارت بعد معركة حطين خصصوا جزءا  
من قصائدهم للحديث عن معركة حطين ، فقد نظروا إليها  
على أنها مقدمة لهذا الفتح المجيد .

وأكبر ما نال تمجيد الشعراء في أيام صلاح الدين معركة  
بيت المقدس ؛ وقف الشعراء ينشدون صلاح الدين شعرهم ،  
وأرسل كثير منهم قصائد التهئة إليه عندما لم يستطيعوا إنشاده ،  
وأنشأ بعض الشعراء أكثر من قصيدة في هذا الفتح المبارك .  
وظفر الأدب العربي بذخيرة من شعر الفتح يمتاز كثير منه بالقوة  
وتدفق ماء الحياة . ومن ذلك قصيدة لفخر الكتاب الحسن  
الجويني ، منها قوله :

جُفدُ السماءِ لهذا الملكِ أعوانُ

من شكّ فيهم فهذا الفتحُ برهانُ

متى رأى الناس ما نَحْكِيهِ في زَمَنِ  
 وقد مضتْ قَبْلُ أَزْمَانٍ وَأَزْمَانُ  
 هَذِي الْفَتْوحُ فَتَوْحُ الْأَنْبِيَاءِ ، وما  
 لَهُ سِوَى الشُّكْرِ بِالْأَفْعَالِ أَمَانُ  
 أَضِحتْ مَلُوكُ الْفَرَنْجِ الصَّيْدُفِي يَدِهِ  
 صَيْدًا ، وما ضَعُفُوا يَوْمًا ، وما هَانُوا  
 كَمَ مِنْ فُخُولِ مَلُوكٍ غَوَدُوا ، وَهُمْ  
 - خَوْفَ الْفَرَنْجَةِ - وَلِدَانُ وَنِسْوَانُ  
 اسْتَصْرَحَتْ بِمَلِكِشَاه طَرَأُ بُلُسُ  
 نِغَامٌ <sup>(١)</sup> غَنَمًا ، وَصَمَّتْ مِنْهُ آذَانُ  
 هَذَا ، وَكَمَ مَلِكٍ مِنْ بَعْدِهِ نَظَرُ  
 إِسْلَامٍ يُطَوَّى وَيُحَوَّى ، وَهُوَ سَكْرَانُ  
 تَسْعُونَ عَامًا بِلَادُ اللَّهِ تَصْرُخُ ، وَالْ  
 إِسْلَامُ أَنْصَارُهُ صُمٌّ وَغَمِيَانُ

---

(١) خام عنه : لَكَمَ وَجِين



فالآن لِي صلاحُ الدينِ دعوتَهُمْ  
 بأمرٍ مَنْ هو للعِوَانِ مِعْوَانُ  
 للتَّاصِرِ ادَّخِرْتَ هذِي الفَتوحُ، وما  
 سَمَتْ لَهَا هِمُّ الأَمَلِكِ مُذْ كَانُوا  
 فِي نَصْفِ شَهْرِ غَدَا لِلشَّرِكِ مُصْطَلَمَا  
 فَطَهَّرَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدَانُ  
 لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ  
 تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقُرْآنُ  
 خَزَنْتَ عِنْدَ إِلَهِ الْعَرْشِ سَائِرَ مَا  
 مَلَكَتَهُ ، وَمَلُوكُ الْأَرْضِ خُزَّانُ  
 فَاللَّهُ يَبْقِيكَ لِلْإِسْلَامِ تَحْرُسُهُ  
 مِنْ أَنْ يُضَامَ ، وَيُلْفَى وَهُوَ حَيْرَانُ  
 وَهَذِهِ سَنَةٌ أَكْرَمَ بِهَا سَنَةً  
 فَالْكَفَرُ فِي سِنَةٍ ، وَالنَّصْرُ يُقْطَانُ

إذا طوى الله ديوان العباد فما

يُطوى لأجر صلاح الدين ديوان

والشاعر هنا يبهره الفتح الذى جاء بعد طول يأس  
وانتظار ، فلم يشك فى أن الملائكة كانوا أعوانا فى هذا الفتح ،  
فقد مضت أزمان متطاولة لم ير الناس فيها مثل هذا النصر المبين .  
إن هذا الفتح فتح نبى لا ملك .

ومضى الشاعر يوازن بين صلاح الدين ومن سبقه من الملوك :  
أما صلاح الدين فقد صار ملوك الفرنج فى يده أسرى برغم أنهم  
لم يكونوا ضعافا ولا أذلاء ، أما من قبله من الملوك فكثير منهم  
كانوا كالولدان أو النساء خوفا من الفرنج . ولست أشك فى أن فى  
ذلك كثيرا من المبالغة ، فإن كثيرا من الملوك قبل صلاح الدين  
حاربوا الفرنج ، وحاولوا أن يستردوا ما اغتصب من أرض  
الوطن ، ولكن لم تكن لديهم همة صلاح الدين ولا ما فى يده  
من الإمكانيات .

ويسجل الشاعر على أحد هؤلاء الملوك ويدعى : ملكشاه  
الذى استصرخت به طرابلس ، فلم يسمع نداءها ، وأعرض عنها .  
وهكذا انقضت تسعون عاما وهذا الجزء من أرض الوطن

في يد أعدائه ، يستغيث ولا مغيث ، حتى جاء صلاح الدين ،  
فاستجاب للنداء ، ومضى يدمر الغاصبين المعتدين .

ويهتف الشاعر من أعماقه لهذا العام المبارك ، فقد تم النصر  
فيه على العدو في معركتين خالدين : معركة صفين ، وبيت المقدس .  
ويقول الشريف النسابة المصري من قصيدة :

أَرَى مِنْ أَمَامِ مَا بَعَيْنِي أُبْصِرُ  
الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرْجَةُ تُكْسَرُ  
وَمِلِكُهُمْ فِي الْقَيْدِ مَصْفُودٌ<sup>(١)</sup> وَلَمْ

يُرَ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ مَالِكُ يَوْسُرُ  
قَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ الَّذِي

وَعَدَ الرَّسُولُ ، فَسَبِّحُوا ، وَاسْتَغْفِرُوا  
فُتِّحَ الشَّامُ ، وَطَهَّرَ الْقُدْسُ الَّذِي

هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْخَشَرُ  
يَا يَوْسُفَ الصَّدِيقُ أَنْتَ لِفَتْحِهَا

فَارَوْقَهَا عَمْرُ الْإِمَامِ الْأَطْهَرُ

---

(١) مصفود : مقيد مغلول

ويشترك هذا الشاعر والشاعر السابق في الإعجاب بهذا  
الفتح إعجابا ظن معه أن ما يراه بعينه هو حلم تمر أحداثه في  
النام ، وهذه القصيدة وسابقتها توحيان بأن النفوس يومئذ  
كانت ترى استرجاع ما اغتصب من أرض الوطن أملا عسير  
التحقق ، فرأينا الشاعر الأول يؤكد أن الذي أغان على هذا  
الفتح إنما هم الملائكة ، ونرى الثاني يتساءل إن كان ما يراه  
حقيقة أم حلما ؟ بينما يعده السامع آية عظمى ، وذلك إذ يقول :

أعيًا وقد عاينتمُ الآيةَ العظمى

لآيةٍ حالٍ نذخرُ القُرَّ والنظما

وتدلان كذلك على أن المسلمين لم يكونوا يستهنون بأمر  
الفرنج وملوكهم ، وإنما كانوا يرون الغلبة عليهم محتاجة إلى جهد  
عنيف ، ويرون ملوكهم أشداء أقوياء ؛ ولهذا انصرف الشعر  
إلى تمجيد صلاح الدين تمجيذا رفعه إلى درجة أنه يشبه الخلفاء  
الراشدين .

وقال ابن جبير الأندلسي :

أُطَلَّتْ عَلَى أَفْقِكَ الزَّاهِرُ

سُـعُودٌ مِنَ الْفَلَكَ الدَّائِرِ

فأبشِرْ ، فَإِنَّ رِقَابَ الْمَدَا  
تُمَدُّ إِلَى سَيْفِكَ الْبَارِ  
وَكُنْ لَكَ مِنْ فَتَكَةٍ فِيهِمْ  
حَكَتْ فَتَكَةُ الْأَسَدِ الْخَادِرِ<sup>(١)</sup>  
كَسَرَتْ صُلْبَهُمْ عَنْوَةً  
فَلَهُ دَرَكٌ مِنْ كَاسِرٍ  
وَعَيَّرَتْ آثَارَهُمْ كُلَّهَا  
فَلَيْسَ لَهَا الدَّهْرُ مِنْ جَابِرٍ  
وَأَمْضَيْتَ جِدَّكَ فِي غَزْوِهِمْ  
فَتَعَسَّاءَ لِمَنْ لَدَّهُمُ الْعَائِرُ  
وَأَدْبَرَ مَلِكُهُمْ بِالشَّأِ  
مَ ، وَوَلَّى كَأَمْسِيهِمُ الدَّائِرُ  
جَنُودُكَ بِالرُّعْبِ مَنْصُورَةٌ  
فَنَاجِزٌ مَتَى شِئْتَ ، أَوْ صَائِرُ

---

(١) الإسمه الخادِر : الساكن في الامية

فكَلَّمُهُمْ غَرِيقٌ هَالِكٌ  
 بَنِيَّارٍ عَسْكَرِكَ الْوَاحِشِ  
 ثَارَتْ لَدَيْنِ الْهَدَى فِي الْعَدَا  
 فَأَتَرَكَ اللَّهُ مِنْ ثَائِرِ  
 وَقُمْتَ بِنَصْرِ إِلَهٍ الْوَرَى  
 فَسَمَّاكَ بِالْمَلِكِ الْفَاصِرِ  
 وَجَاهَدْتَ جَهْدًا صَابِرًا  
 فَلِلَّهِ أَجْرُكَ مِنْ صَابِرِ  
 تَبَيَّتُ الْمُلُوكُ عَلَى فَرَشِهِمْ  
 وَتَرَفُلُ فِي الزَّرْدِ السَّابِرِ<sup>(١)</sup>  
 وَتَوَثَّرُ جَاهِدَ<sup>(٢)</sup> عَيْشِ الْجَاهِ  
 دِ عَلَى طَيْبِ عَيْشِهِمْ الْفَاصِرِ  
 وَتَسْهَرُ لَيْلَكَ فِي حَقِّ مَنْ  
 سِيرَضِيكَ فِي جَفْنِكَ السَّاهِرِ

(١) السَّابِرِ : درع دقيقة النسيج . والزرد : الدرع .

(٢) جهد عيفه بكسر الهاء : نكد واشتد .

فَتَحَتِ الْمَقْدَسَ مِنْ أَرْضِهِ  
 فَعَادَتْ إِلَى وَصْفِهَا الطَّاهِرِ  
 وَجِئَتْ إِلَى قُدْسِهِ الْمُرْتَضَى  
 فَخَلَّصَتْهُ مِنْ يَدِ الْكَافِرِ  
 وَأَعْلَيْتَ فِيهِ مَنْارَ الْهُدَى  
 وَأَحْيَيْتَ مِنْ رَسْمِهِ الدَّائِرَ<sup>(١)</sup>  
 لَكُمْ ذَخَرَ اللَّهُ هَذَا الْفُتُو  
 حَ مِنْ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الْغَايِرِ  
 وَخَصَّكَ مِنْ بَعْدِ فَارُوقِهِ  
 بِهَا لِاصْطِنَاعِكَ فِي الْآخِرِ  
 مَحَبَّتُكُمْ أَلْقَيْتَ فِي النُّفُوسِ  
 سَ بِذِكْرِ لَكُمْ فِي الْوَرَى طَائِرَ

والقصيدة واضحة المعنى ، سهلة العبارة ، تحمل كثيراً من  
 التفاؤل ، فبعد فتح القدس أمل الناس استرداد جميع أجزاء

---

(١) دثر الرسم : المحي . والرسم : ما بقي من آثار الديار .

الوطن المغتصب ، ولذلك صح لابن جبير أن يقول في هذه القصيدة :

وأدبر ملكهم بالشَّـا

مِ وولّى كأمسهم الدَّابِرِ

ويطول بي وجه القول إذا أنا أوردت ما قيل في معركة  
بيت المقدس من الشعر ، وما قيل في بقية معاركه ، فذلك مقدار  
ضخم لا سبيل إلى ليراده .

## — ٤ —

واحتفظ الشعر لصلاح الدين بصورة ترسم سجاياه التي  
أعجب بها أهل عصره ؛ ومن تلك السجاياء صفات شخصية ،  
وأخرى اجتماعية ، ومنها ما كان يسوس بها شئون رعيته ، ومنها  
صفات حرية ، وأخرى دينية .

أما الصفات الشخصية التي أعجب بها الشعراء فأراؤه الصائبة  
السديدة التي تبدو كأنها وحى أو إلهام . يقول فيه سماعة  
ابن عبد الله :

فَتَيَّ مَهْتَدِي الْأَرَاءِ فِي كُلِّ حَادِثٍ

مُضِلُّ لَأَرَاءِ الرِّجَالِ بِهَا خَبَطُ



ويقول فيه مرة أخرى :

صعبُ العريكةِ ، سهلُ الرَّاحَتَيْنِ له

رأى حصيفٌ قويمٌ غيرُ ذى ميلٍ

رأى شديدُ القُوَى ، ما فيه من خورٍ

لا بل سديدُ النُّهى ما فيه من خللٍ

وهو يقرن رأيه بالعزم ، قال فيه أبو الفضل الجلياني :

لتظفرَنَّ بما لم يحويه ملكٌ

أبا المظفرِ ، حظاً خطئه الأزلُ

دليلُ ذلك أراءه لك اقترنت

بالحزمِ والعزمِ ، لم يُخصَّصْ بها الأولُ

وهو دائمُ اليقظة والتنبه ، فلا غرابة إن ظفر بما لم يظفر به

سواء ، قال ابن سناء الملك :

أراد ملوكُ الأرضِ سعدك ، واشتهوا

تعلّمهُ ، والسَّعدُ لا يُتعلَّمُ

ملكت أقاليم الملوك ، وإتما  
 سهزت وأملاك الأقاليم نوم  
 وهو عظيم الهمة بعيد الآمال ، يقول عنه ابن سناء الملك :  
 حتى أتى من منال النجم مطلبه  
 يا طالب النجم ، قد أوغلت في الطلب  
 ويقابل الشدائد التي تصادفه بصدر رحب ، بل يجد في  
 عراقها عذوبة ولذة ، قال فيه سعادة بن عبد الله :  
 أغتر ، يـعـذبُ صاب<sup>(١)</sup> الحادثات له  
 فصائبها عنده أحلى من العسل  
 وهو زاهد كذلك رغم سعة ملكه وعظم سلطانه . يقول  
 الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبي الأملاك منكذرا  
 علما بملك نعيم ما به كدر  
 وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها  
 وجئت تقدم حيث الهول والخطر

---

(١) الصاب : عصارة شجرة مرة .

أما صفاته الاجتماعية فقد مجد الشعراء من بينها كرمه ،  
وأكثروا الحديث عن هذه الصفة ، يقول سعادة بن عبد الله :

سَمَحَ يَرُوحُ إِلَى النَّدَى بِرَاحَةٍ  
قَدْ أَعْشَبَ الْمَعْرُوفُ بَيْنَ بَنَائِهَا  
وَفَتَى إِذَا زَخَرَتْ بِحَارُ نَوَالِهِ  
غَرِقَتْ بِحَارُ الْأَرْضِ فِي خُلُجَانِهَا  
ويقول سبط ابن التعاويذي :

فَلَا يُضْجِرَنَّكَ ازْدِحَامُ الْوَفْوِ  
دِ عَلَيْكَ ، وَكَثْرَةُ مَا تَبَدَّلُ  
فَإِنَّكَ فِي زَمَنِ لَيْسَ فِيهِ  
جَوَادٌ سِوَاكَ ، وَلَا مُفْضِلُ

وَقَدْ قَلَّ فِي أَهْلِ الْبَنَمُو  
نَ ، وَقَدْ كَثُرَ الْبَائِسُ الْمُرْمِلُ  
وَمَا فِيهِ غَيْرُكَ مِنْ يُسْتَمَّا  
حُ ، وَمَا فِيهِ إِلَّاكَ مِنْ يُسْأَلُ

ويقول نشو الدولة أبو الفضل :  
 وكم لصلاح الدين ، مذكأن ، من ندى  
 إِذَا ضَوَّع<sup>(١)</sup> النّادى به خجلَ العِطْرُ  
 ويقول أبو طالب بن الحُثّاب :  
 ولقد ظمئتُ فلم أجد بدلا من الما  
 م الزُّلالِ سوى مواطرِ سَحْبِهِ  
 ويقول علم الدين الشاتاني :  
 يمينك فيها اليُمنُ ، واليسرُ في اليسرِ  
 فبُشْرَى لمن يرجو النّدى منهما ، بُشْرَى  
 ويقول العماد :  
 وقيلَ لنا : في الأرضِ سبعةُ أبحرٍ  
 ولسنا نرى إلّا أنامله الخمد  
 ويقول سبط بن التعاويذى :  
 سمّا لقد فضلَ ابنُ أيّوبَ الحيّا<sup>(٢)</sup>  
 بسماح كَفِّ بِالْقَضَارِ هَتُونِ<sup>(٣)</sup>

---

(١) ضاع المسك : تحرك ، فالتفتت راحته . وتضوع أيضا .  
 (٢) الحيا : المطر . (٣) القفار : الذهب . وهن المطر : قطر .

مخلوقة من سُؤْدٍ وَندَى ، وقد  
 خُلِقَ الأنامُ سَلَالَةً من طين  
 يامن إذا نَزَلَ الوفودُ ببابه  
 نزلوا بحجمٍ من نداءه معين  
 وقال ابن الدّهان :

بيدَي فتي لو أن جودَ يمينه  
 للغيث ، لم يك مُسِكَا عن موضع  
 فإذا تبسّم قال : يا جودُ ، اندفق  
 فيضا ، وياسحبَ الندى ، لا تقلعي  
 ومجدوا فيه كذلك صفة الحلم ، يقولون فيه سعادة :

كريمٌ إذا ماجاه معدمٌ حبا  
 حلیم إذا ماجاه مجرمٌ عفا  
 ويقول فيه نجم الدين يوسف بن الحسين :  
 عزمٌ وحزمٌ أنسيا ما كان من  
 عزم ابنِ مرداسٍ وحلم الأحنفِ

اما سياسته لرعيته فتتسم بالعدل ، يقول فيه سبط بن  
الجوزى :

الملك العادل الذى كشف الله به هم كل مكروب  
ويقول أسامة بن منقذ :

وسرت سيرة عدل في الأنام كما

قضى به الصادقان : الشرع والشور

وبالتواضع الذى لا يخذل العزة ، واللين الذى لا يمس

المهية ، يقول له سبط بن التعاويذى :

لك عفة في قدرة ، وتواضع

في عزة ، وشراسة في لين

وبهذه الصفات استطاع أن يملك قلوب شعبه بالحب والمهابة

يقول فيه أسامة بن منقذ :

ملك القلوب محبة ومهابة

فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

ويجمل الملك ذا السلطان أن يجتمع إلى هيئته حب القلوب

له واجتماع الأئدة حوله ، كالوالد يحبه بنوه ، ويهابونه  
في وقت معا .

بهذه الصفات أيضاً كان جديراً بالملك واحق به ، يقول  
فيه الحكيم أبو الفضل :

وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ

كَأَنَّهُ مَلَكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَّانٍ

وكانت صورة صلاح الدين بطلاً مجاهداً من أبرز الصور  
التي احتفظ بها الشعر له ، كتب إليه أسامة بن منقذ يقول :

تَهَنُّ يَا أَطْوَلَ الْمُلُوكِ يَدَا

فِي بَسْطِ عَدْلٍ ، وَسُطُوَةِ وَندَى

لَا تَسْتَقِلُّ الَّذِي صَنَعْتَ ، فَقَدْ

قُتِمَ بِفِرَاسِ الْجِهَادِ مُجْتَهِداً

وَجُبَّتْ أَرْضُ الْعِدَى ، وَأَفْنِيَتْ مِنْ

أَبْطَالِهِمْ مَا يَجَاوِزُ الْعَدَدَا

وَمَا رَأَيْنا غَزَا الْفَرَجِ مِنْ

مُلُوكٍ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ أَحَدَا

وقال الرشيد بن التنايلسي من قصيدة له :

ما أبهج الدين والدينيا بمالكها الصَّ  
 ديق يوسف ، لا لآذت به الغير<sup>(١)</sup>  
 ملكٌ تساوى جمادى فى الجهاد ، وتمَّ  
 وزٌ لديه ، وضاهى ناجرا صفر<sup>(٢)</sup>  
 فليس يئنيه حرٌّ إن توقد عن  
 رضا الإله ، ولا إن أغدق المطرُ  
 ولا يُنهنه عمّا يكابده  
 ضجج ، أعيذ معالية ، ولا ضجج  
 ولا يرى الروح إلا ظهر سلبة  
 فى بطن معركة مراكبها وعُر<sup>(٣)</sup>  
 صبر جميل ، كطعم الشهد فى فمه  
 وعند كلِّ مليك طعمه الصبر<sup>(٤)</sup>

(١) غير الدهر : أحداثه .

(٢) تموز : شهر يولية . والناجر : كل شهر من شهور الصيف .

(٣) الروح : الراحة . والسلبة من الخيل : ما عظم وطال عظامه .

(٤) الصبر يكسر الباء : الدواء المر .



وهو في ميدان القتال شجاع ، قال فيه أسامة :

يُعْطَى الْأُلوْفَ ، ويلتقيها باسمها

طلقَ الحَيَا في القَنَا المنشَايرِ

يلقى العدو بقلب ثابت صادق اليقين ، أرسل إليه نخر  
الكتاب الجويني قصيدة منها :

لك قلبٌ عدد اللقاءِ مَكِينٌ

وله من تُقَاهُ ألفُ كِين

يا مليكا يَلْقَى الحروبَ بحول

مستعصما وصدق اليقين

وهو في صدر عدوه مهيب مرهوب الجانب ، حتى صار اسمه  
يبعث الرعب في نفس العدو ، ويدفعه إلى الفرار والهزيمة ، قال  
أبو الفضل الجلياني :

فكم مليكٍ لهم شقُّ البحارِ سُرى

لينصر القبرَ ، والأقدارُ تَحْذُلُهُ

وكم ترحل منهم فيلق بفلأ  
 إلى الخوامع ألقاه ترحله<sup>(١)</sup>  
 استصرخوا الأهل، والعدوى تمزقهم  
 واستكثروا المال، والهيجا تنفله<sup>(٢)</sup>  
 كم قد أعدوا، وكم قد قل جمعهم  
 من غير ضرب ولا طعن يرسله  
 وإنما اسم صلاح الدين يذكر في  
 جيش العدو، فيسيبهم تحمله  
 وقال الحسين بن عبد الله بن رواحه:  
 لقد خبر التجارب منه حزم  
 وقلب دهره ظهراً لبطن  
 فساق إلى الفرنج الخيل برا  
 وأدركهم على بحر بسفن

---

(١) الخوامع . جمع خامعة ، وهي الضيق ، لأنها تجمع ، أي تمشي كأن بهامرجا .  
 (٢) تنفله . تبعه غنيمته .

يَرَوْنَ خِيَالَهُ كَالطَّيْفِ يَسْرِى  
فَلَوْ هَجَعُوا أَتَانَهُمْ بَعْدَ وَهْنٍ<sup>(١)</sup>

أَبَادَهُمْ تَخَوُّفُهُ ، فَأَمْسَى  
مُنَانُهُمْ لَوْ يَبْتَئُهُمْ بِأَمْنٍ  
وهو خير بالحرب ، فقيه بأمورها ، أرسل إليه من مصر  
نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة يقول له فيها :

مَلِكٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ بِحَرْ تُفْقَهُ  
وَلَهُ غَدَاةَ السَّلْمِ زُهْدٌ تَصَوِّفُ  
وعليه أنزلَ في الجهادِ مَفْصَلٌ .

فلذلك يَقْرُؤُهُ بِسَبْعَةِ أَحْرُفٍ  
ولعل الشاعر يريد بقراءة صلاح الدين للمفصل الذي أنزل  
عليه في الجهاد أنه يتصرف في فنونه على ألوان شتى يهر بها  
العدو .

وَلَمْ لَا يَكُونُ مَرْهُوبَ الْجَانِبِ وَقَدْ :

---

(١) الوهن : الهزيع من الليل .

تَمَلَّكَ حَوْلَهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا  
فَصَارُوا لِفَتْحِ نَاصِ تَحْتَ رَهْنٍ  
وذلك لأنه ملك مصر والشام والإفرنج بينهما .

وتحدث الشعراء كثيراً عن جيشه الضخم ، فيصوره أسامة  
ابن منقذ بأنه إذا مشى خلته لجة من الماء ، أمواجها ماعلى رؤوس  
الجلد من الخوذ ، وما يتلألأ في أيديهم من السيوف ، وذلك  
إذ يقول :

وَإِذَا سَرَى خِلَتِ الْبَسِيطَةُ لُجَّةً  
أَمْوَاجُهَا بَيْضٌ<sup>(١)</sup> وَبَيْضٌ قَوَاضِبٌ<sup>(٢)</sup>

ويتحدث سعادة بن عبد الله عن هذا الجيش ، فيصفه بأنه  
كالجراد لا يحصى له عدد ، فإذا سار إلى ميدان القتال أمارت  
خيله عجاجاً يظلمه ، كأنه سماء عمدها قنا الجيش ، شبهها ترصد  
العدو لتصيبه ؛ وصوارم الجيش في دجى النفع تضيء كالنيران  
بأيدي جند شجعان يصغر إلى جانبهم جن عبقر وأسد يشة ،  
وبمثل هذا الجيش يدرك صلاح الدين ما يتمناه . وذلك  
إذ يقول متحدثاً عن الجيش :

---

(١) الببيض . جمع بيضة وهي الخوذة . (٢) القواضب . السيوف .

عَرَمَرَمٌ كَالدَّبِّي (١) الطَّيَّارِ مَنَشَرٌ  
 تُحْصَى الرَّمَالُ ، وَلَا يُحْصَى لَهُ عَدْدُ  
 تَسْمُو عَلَيْهِ سَمَاءٌ مِنْ عَجَاجَتِهِ  
 مَبْنِيَّةٌ مِنْ قَنَاهِ تَحْتَهَا عُمْدُ  
 سَمَاءُ نَقِيعِ لَشَيْطَانِ الْعَدُوِّ بِهَا  
 مِنَ الْأُسْنَةِ شُهْبٌ كُلُّهَا رَصْدُ  
 وَفِي دِيَاجِيهِ نَارٌ مِنْ صَوَارِمِهِ  
 تَكَادُ تَقْطُرُ مَاءً ، وَهِيَ تَتَقَدُّ  
 نَارٌ تُشَبُّ عَلَى أَيْدِي غَطَارِفَةٍ (٢)  
 لَا يَبْرُقُ الْجَوُّ إِلَّا كُلَّمَا رَعَدُوا  
 مَا جِئْنَ عَبَقَرَجَيْنِ كُلَّمَا عَزَفُوا  
 مَا أُسْدُ يَبْشَةُ أُسْدُ كُلَّمَا حَرَدُوا (٣)

(١) الدَّبِّي : الجراد .

(٢) غَطَارِفَةٌ : جمع غَطْرِيف ، وهو السيد الشريف .

(٣) حَرْد : غضب . وَعَبَقَرَجَيْنِ : موضع كثير الجن . وَبَيْشَةُ : واد فيه موضع

مفجر كثير الأسد .

من كلّ أروعَ أما ربحه تَمِلُّ  
 لا يستفيقُ وأما — يفه نَعَرْدُ  
 في كُلِّ يومٍ جلاذٍ لو ألمَّ به  
 عمرو بن وُدٍّ<sup>(١)</sup> عَداه الصَّبْرُ والجَلْدُ  
 شِمٌّ بالشَّامِ سيوفاً من عزائمهم  
 إذا غمَدَتِ المواضى ليس تنغمِدَ  
 ولا تَخَفُ؛ فالعَوَالِي شوكها تَمَرُّ  
 حلوُ الجنى، والمعالى صابها شَهْدُ  
 واخْطُبْ بِحَدِّ المواضَى كُلَّ شائِخَةٍ  
 في أنفها شَمٌّ، في جِيدها غَيْدُ  
 فمن يَكُنْ بالمواضَى خاطباً أبداً  
 زُفَّتْ إليه بلادٌ كُلُّها خُرْدُ<sup>(٢)</sup>  
 ويصف مرةً أخرى هذا الجيش، فيقول:

(١) عمرو بن ود - فارس قريش وعجاصها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يَسلَمْ.

(٢) خرد - جمع خريدة، وهي الحبيبة.

بِأَرْعَنَ مِثْلِ رُعَيْنِ الطَّوْدِ نَجْرٍ<sup>(٥)</sup>  
 تَضِيقُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ الرَّحَابُ  
 خَمِيسٌ سَوْفَ تَرْضَى الْبَيْضُ عَنْهُ  
 إِذَا زَارَتْ ضَرَاغِمَهُ الْغَضَابُ  
 تَكْرُهُ عَلَى الصَّقُورِ بِهِ أَسْوَدُ  
 عَلَيْهَا لَلْقَنَا الْخَطِئُ غَابُ  
 كَانَ مُتَارَ قَسَطِلِهِ<sup>(٦)</sup> عَلَيْهِمْ  
 إِذَا طَلَعَتْ شُمُوسُهُمْ ضَرَابُ  
 وَيَصِفُهُ اسَامَةُ بْنُ مَنِقَذٍ ، يَقُولُ :  
 وَبَدَلَتْ أَمْوَالَ الْخَزَائِنِ بَعْدَمَا  
 هَرِمَتْ وَرَاءَ خَوَاتِمِ الْخَزَائِنِ  
 فِي جَمْعِ كُلِّ مُجَاهِدٍ ، وَبِجَالِدٍ  
 وَمِبَارِزٍ ، وَمُنَازِلِ الْأَقْرَابِ

(٥) الأرعن : جبل ذو ألف يتقدمه . والطود : الجبل . والحجر : الجيش العظيم

(٦) القسطل . الغبار .

من كل من يرد الحروبَ بأبيض  
 عَضْبٍ ، ويصدرُ وهو أحمرقانِ  
 ويخوضُ نيرانَ الوغى ، وكأنته  
 ظمآنُ خاضَ مواردَ الغُدرانِ  
 قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى:  
 ماذا أتى بالأسود من خَفَانِ (١)  
 لو أنهم صدموا الجبالَ لزغزعا  
 أركانها بالبيض والخُرَصَانِ (٢)  
 فهمُ الذّخيرةُ للوقائعِ بالعدي  
 ولفتح ما استعصى من البُلْدَانِ  
 ويقول العماد :

جنودك أمـلأئ السماء وظنهم  
 عُداتك جنّ الأرض في الفتك لا الإنسا

---

(١) خفان : مأسدة معروفة يضرب بها المثل .  
 (٢) الخرصان : خج أحرص ، وهو القناة والسنان .



وهذا الشعر كله يجمع على شجاعة جند صلاح الدين، وجههم  
 للقتال، وإقدامهم على أعدائهم في بسالة وعزم.  
 وصلاح الدين لا يرضى على هذا الجيش بمال، بل هو كريم  
 مع جنده، وتلك سياسة حكيمة، قال عبد المنعم البجلياني:  
 إِنَّ الْمُلُوكَ الَّذِينَ أَمْتَدَّ أَمْرُهُمْ  
 لَمْ يَخْزُنُوا الْمَالَ، بَلْ مَهْمَا حَوَّوْا بَدَّلُوا  
 كَذَا السِّيَاسَةِ، فَلَا جُنَادُ لَوْ عَلِمُوا  
 بُحْلَ الْمَلِكِ وَجَاءَتْ شِدَّةٌ خَذَلُوا  
 وَأَشَادَ الشَّعْرُ كَذَلِكَ بِأَسْطُولِ صِلَاحِ الدِّينِ وَمَا جَلَبَهُ مِنْ  
 الْأَسْرِ، إِذْ قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ الْحَمَوِيُّ:  
 لَقَدْ خَبَرَ التَّجَارِبَ مِنْهُ حَزْمٌ  
 وَقَلَبَ دَهْرَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ  
 فَكَفَّ الْكُفْرَ أَنْ يَطْنِي بِمَكْرِ  
 مُيَخِّرُ كُلِّ ذِي فِكْرٍ وَذِهْنٍ  
 فَسَاقَ إِلَى الْفَرْنَجِ الْخَيْلَ بَرًّا  
 وَأَدْرَكَهُمْ عَلَى بَحْرِ بُسْفِينِ

لقد جلب الجوارى بالجوارى  
يَمْدَنَ بكلِّ قِدٍّ مَرَجَحِنَ<sup>(١)</sup>  
ووصف الشعر أيضاً رايته وسيفه ورمحه وجواده ، فقال  
سعادة بن عبد الله :

ورايةٌ ما هفتَ يوماً ذوائبها  
إلا على قدِّ عَسَالٍ من الذُّبُلِ<sup>(٢)</sup>  
صفراء ، خافقةٌ بالنَّصير ، حائرةٌ  
بالحول<sup>(٣)</sup> ما لم يحزُهُ الغير بالحيل  
منشورةٌ ليس يُطوى عزمُ صاحبها  
حتى ينالَ مكاناً قطُّ لم يُنلَ  
وصارمٌ مُرهَفٌ خَفَّتْ مضاربُهُ  
فليس يسوقُ إلا سرعةَ الأَجَلِ

---

(١) المرجح : المائل . (٢) العسال : الريمج . والذبل ، جمع ذابل ، وهو  
القناة . (٣) الحول : الخلق ، وجودة النظر ، والقدرة على التصرف  
واللوة ، والقدرة .

سيفٌ ليوسفَ ما قَدَّتْ حديدُهُ  
 إلّا من الظَّفَرِ المقرونِ بالجدلِ  
 كأنّه ، وهو في يُمنَاهُ مُنْصَلِتٌ  
 برقٌ جلا عارضًا في عارضٍ هَطِلٍ<sup>(١)</sup>  
 وذابلٌ عِطْفُهُ يَهْتَزُّ من طرب  
 إلى الطَّمانِ ولا يَهْتَزُّ من خطلِ  
 يزدادُ من طَوْلِهِ طولًا براحتِهِ  
 إذا طَوَّالُ الرُّدَيْنِيَّاتِ لم تَطُلِ  
 وسابحٌ لو يجارى الرِّيحَ عاصفَةً  
 لَقُيِّدَتْ خطواتُ الرِّيحِ بالقَشَلِ  
 سهلُ القيادِ ، فما يُعْزَى إلى شَغَبِ  
 جمُّ النَّشاطِ ، فما يُدْعَى إلى كَسَلِ  
 نجمٌ يَمْزُجُ بيدرٍ في دُجَى قَتَمٍ  
 صَقَرٌ يَكُرُّ بايْثٍ في شَرَى أَسَلِ<sup>(٢)</sup>

(١) العارض المَطْل . السحاب المَطْر . (٢) الأَسَل . الرماح .

وصلاح الدين بجيشه العرمرم يهين الفرنج ، ويدلهم ، ويحطم  
قواهم ، ويحصد شوكتهم ، قال العماد :  
بنو الأصفرِ الإفرنجُ لاقُوا ببضه  
وُسْمِرِ عَوَالِيهِ مَنَائِمُهُمْ حُمْرًا  
وما ابيضَّ يومُ النَّصْرِ ، واخضرَّ روضُه  
من الخصبِ حتَّى اسودَّ بالنَّقعِ واغبرَّ

— ٥ —

فليس بعجيب أن يرتاع الشعر لفقده ، وان يرميه احمر  
رثاء ، ويندب فيه تلك الحلال السمحة التي جعلته جيباً إلى  
القلوب ، أثيراً لدى النقوس ، ورمزاً للدفاع عن الإسلام ،  
واسترداد الوطن السليب ، فن ذلك تلك القصيدة للعماد بلغت  
مائتين واثنتين وثلاثين بيتاً يقول فيها :  
شملُ الهُدَى والملِكِ عمَّ شتاتُه  
والدَّهرُ ساء ، وأقلعتْ حسناتُه  
أين الذي كانت له طاعاتنا  
مبذولةً ، ولربَّ طاعاته

باللهِ ، أين الناصرُ الملكُ الذى  
 لله خالصةً صفتٌ تيسرُ  
 أين الذى مازال سلطانا لنا  
 يُرجى نداءً ، وتُتقى سطواته  
 أين الذى شرف الزمانُ بفضله  
 وسمت على الفضلاء تشريفاته  
 أين الذى عنت الفرنج لبأسه  
 ذلاً ، ومنها أدركت ثاراته  
 من فى الجهادِ صِفاحه ما أغمدت  
 بالنصر ، حتى أغمدت صفحاته  
 لذ المتاعب فى الجهادِ ، ولم تكن  
 مُد عاشَ قط لذاته لذاته  
 مسعودةً غدواته ، محموداً  
 روحاته ، ميمونةً ضحواته

لا تحسبوه مات شخصا واحدا  
 قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُه  
 ملكٌ عن الإسلام كان محاميا  
 أبدا ، إذا ما أسلمته حُماة  
 قد أظلمتْ مُذْغَابٌ عَنَّا دورُه  
 لما خَلَتْ مِنْ بَدْرِهِ داراتُه  
 دُفِنَ السَّامِحُ ، فليس تُنْشَرُ بعدما  
 أودى إلى يومِ النُّشُورِ رُفَاتُه  
 الدِّينُ بعد أبي المظفرِ يوسفٍ  
 أقوت قراه ، وأقفرت ساحاتُه  
 ما كنتُ أعلمُ أنْ طودا شامخا  
 يهوى ، ولا تهوى بنا مهواتُه  
 مَنْ لِلْيَسَامِيِّ والأراملِ راحمٌ  
 متعطِّفٌ مفضوضَةٌ صدقاتُه

لو كان في عصر النبيّ لأُنزلت  
 في ذكره من ذكره آياته  
 يا راعيا للدين حين تمكّنت  
 منه الذئابُ ، وأسلمته رعاته  
 ما كان ضررك لو أقت مراعيّا  
 ديننا تولى مُد رحلت ولآته  
 أرضيت تحت الأرضِ يا مَنْ لم يزل  
 فوق السماءِ عليّة درجاته  
 أعزّزْ على عيني برؤية بهجة  
 الدنيا ، ووجهك لا تُرى بهجته  
 مَنْ للشّعورِ ، وقد عداها حفظه  
 مَنْ للجهادِ ولم تُعد عادته  
 ملأت مهابته البلادَ ؛ فإنه  
 أسدٌ ، وإن بلادَه غاباته  
 ما كان أسرع عصره لما انقضى  
 فكأنما سنّواته ساعاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً

رضوان ربّ العرش بل صلواته

وهذا الجزء من القصيدة يلمس النواحي الإسلامية التي  
ندبها المسلمون عند ما فقدوا صلاح الدين ، ويبين ما كان يملأ  
قلوبهم من حب له وإعزاز ؛ فالشاعر يتألم ؛ لأنه يرى الدنيا  
الجميلة ولا يرى وجه صلاح الدين ، ويشعر بأن أيامه قد انقضت  
مسرعة كأنها ساعات ، ويمجد أعمال صلاح الدين ، لدرجة أنه  
يرأها جديرة بأن ينزل فيها قرآن ، لو أنها تمت في عصر نزول  
القرآن .

وبعد ، فلست أدعى أن الشعر الذي قيل في صلاح الدين  
يروعنا جميعه بقوة أسلوبه ، فقد نجد عبارة بعض الشعراء الذين  
تغنوا بيطولته لم تستطع أن يكون لها نصيب كبير من القوة  
والجزالة ، ولكنها برغم ذلك تبين عن عاطفة صادقة ، وتحاول  
أن تسجل إعجابها بهذا البطل المجيد .

ومن المؤكد أن للعصر الذي أنشئ فيه هذا الشعر أثره  
في تقييد كثير من الإنتاج الشعري بالرغبة الملحة في أن يكون



للصنعة والزخرف مكان في هذا الشعر ، إذ تجدد فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولكن ذلك لم يستطع أن يحجب عن قلوبنا ما كان الشعراء يحسون به نحو فاتح بيت المقدس ، وهازم الفرنج الهزائم المنكرة ، وما كان يتصف به من أخلاق جمعت حوله قلوب معاصريه .

وإذا استثنينا بعض الهنات التي وردت في هذا الشعر رأينا الباقي لنا مما صور به بطولة صلاح الدين ، واضح التعبير ، سليماً في دلالاته على معناه ، قريب المأخذ ، لا غموض في فهمه ، ولا التواء في دلالاته ، ووجدنا الصور التي اختارها الشعراء واضحة بينة ، مما يدل على أن قائل الشعر كانوا يجدون في أنفسهم إعجاباً قوياً بالبطل ، واستطاعوا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بخير ما في وسعهم من الشعر .

## صلاح الدين بين كتاب عصره

الكتاب في الحديث عن صلاح الدين ، فأرخوا له  
حيناً ، وسجلوا مماته الخلقية حيناً آخر ، ونخص  
بالذكر ثلاثة من بين كتاب عصره ، هم : ابن شداد ، والعماد  
الأصبهاني ، والقاضي الفاضل .

أما ابن شداد فقد وضع فيه كتاباً سماه : النوادر السلطانية ،  
والمحاسن اليوسفية . جعل قسمه الأول في ذكر مولد صلاح الدين  
وأوصافه وشمائله ، وجعل القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله  
وقتوحاته .

وتحدث في القسم الأول عن مواظبة صلاح الدين على  
القواعد الدينية ، وعن عدله ، وكرمه ، وشجاعته ، واهتمامه  
بأمر الجهاد ، وصبره ، وحلمه ، ومحافظة على أسباب المروءة .  
ويروى ابن شداد ما رآه من أحواله التي تثبت هذه  
الصفات ، فمن ذلك قوله : « وكان ( قدس الله روحه ) حسن  
الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه . ولقد شاهدت  
من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج ( خذلهم الله )

كانوا نازلين بيوت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف ،  
 حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ،  
 وقد أقام ( يزكا )<sup>(١)</sup> على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم  
 الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود  
 إلى القدس ومحاصرتهم ، وتركيب ( القنابل ) عليه ، واشتدت  
 مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرفهم  
 ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ...  
 واند جلس في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة ، من  
 أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس  
 معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ، ونرتب على كل قسم  
 بمقتضاه ، حتى أخذني الإشفاق عليه والخوف على مزاجه ،  
 فشفت<sup>١</sup> إليه ، حتى يأخذ مضجعه ، لعله ينام ساعة ؛ فقال ( رحمه  
 الله ) : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فواصلت إلى بيتي ،  
 وأخذت لبعض شائي ، إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح ، وكنت  
 أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه ، وهو يمر  
 الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلا ؛ فقلت : قد  
 علمت ؛ فقال ؛ من أين ؟ ؛ فقلت : لأنني ما نمت ، وما بقي وقت

---

(١) اليك بالمارسية : المحرس .

لنوم ؛ ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ؛ فقلت له : قد وقع لى واقع ، وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ؛ فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاق إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه ؛ فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ، يقتل المولى عند الرواح ، ويصلى على العادة بالأقصى ، موضع مسرى النّبيّ ( صلى الله عليه وسلم ) ، ويقدم المولى التصديق بشئ خفية على يد من يثق به ، ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله فى سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول فى باطنك : « إلهى ، قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاق<sup>(١)</sup> إليك ، والاعتصام بمحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ؛ فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ؛ ففعل ذلك كله ، وصلت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيت ساجدا ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجداته ... » .

ويتحدث ابن شداد عن حبه للجهاد ، فيقول : « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه

---

(١) أخذه الى فلان : ركن اليه -

استيلاء عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحبه عليه . ولقد هجر في حجة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقنَّع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ؛ ولقد وقعت عليه الحيمة في ليلة ريحيته على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ؛ وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرحت غريبها ؛ وكان ( رحمه الله ) كثيرا ما يطالعه ... ولاأحكين عنه ما سمعته منه ، وذلك أنه ... لما صلى العيد في القدس . وقع له أن يمضى إلى عسقلان ... ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها ... ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجا شديداً ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيل لي أني لو قيل لي : إن جزت في البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستسخرت رأى من ركب البحر رجاء دينار

أو درهم ، واستحسننت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر .  
 هذا كله خطر لي ؛ لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر ؛  
 فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلى ( رحمه الله ) ، وقال : « أما أحكي  
 لك شيئاً في نفسى : إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ،  
 قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى  
 جزائره واتبعتهم فيها ... » ؛ فعظم وقع هذا الكلام عندي ،  
 حيث ناقض ما كان خطر لي ، وقلت له : ... ما هذه إلا نية  
 جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر المساكين ؛ وهو سور  
 الإسلام ومنعته ؛ فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه ؛ فقال :  
 أنا أستفتيك : ما أشرف الميتين ؟ ؛ فقلت : الموت في سبيل الله ؛  
 فقال : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتين .

ويعد كتاب ابن شداد من أعظم المراجع في تاريخ  
 صلاح الدين .

أما العماد الكاتب ، وهو من كتاب الإنشاء لصلاح الدين فله  
 كتاب الفيح القسى في الفتح القدسى ، وقد سمي العماد كتابه بذلك  
 يشير إلى أنه في فصاحته كأنه نفحة من نفحات قس بن ساعدة  
 الإيادى الخطيب الجاهلى الفصيح المشهور .

وفي أول الكتاب يبين العماد منهجه الأدبي التاريخي في الكتابة عن صلاح الدين .

ولما كان قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الأحداث منذ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهي السنة التي فتحت فيها بيت المقدس قال ، معللاً سبب اختياره البدء بهذا العام : «وأنا أرخت بهجرة ثانية ... وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلهآدأى»<sup>(١)</sup> المداد وتنشق ... وهذه الهجرة أبقى المهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين ، فإن العرب كانت إذا تهاوت في وصف الرجل بالقوة قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمتع السورين ما عمر بعد أن نغر ... »

فكتاب الفتح القدسي يبدأ بتاريخ الحوادث التي جرت في عصر صلاح الدين منذ السنة التي فتحت فيها بيت المقدس إلى السنة

---

(١) الدآدأى : جمع دأ داء ، وهي ثلاث ليال من آخر الشهر . شبه بها المداد لشدة سوادها .

التي مات فيها صلاح الدين ، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة ،  
يؤرخ وفاته وما أعقب هذه الوفاة من أحداث .

وقد التزم العباد في هذا الكتاب اللغة الفنية المصنوعة من  
ألف الكتاب إلى يائه ، والتزم السجع التزاما لم يتخل عنه ،  
فعرض حوادث التاريخ عرضا أدبيا ، يمزج فيه الحقائق بعواطف  
الأديب وإحساساته . وهذا طرف من وصفه لفتح طبرية :  
« وتزل على طبرية في خواصه ، وذوى استخلاصه ... وكان  
ذلك يوم الخميس ، وهو يوم الخميس ، ... ودخل الليل وصباح  
الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر ، ... ولما سمع القوم  
بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط في يده ، وخرج عن جلد جلد ،  
وسمح للفرنج بسبده ولبده <sup>(١)</sup> ، وقال لهم : لا تعود بعد اليوم ،  
ولا بد من وقم <sup>(٢)</sup> القوم ، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد ،  
وذهبت الطراف والتلاد ، وما بقي لي صبر ، وما بعد هذا  
الكسر لي جبر ، وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، وواقفه فما  
ناقفه ، ... ورحل بجمعه ، وبصره وسمعه ، وثمانينه وشياطينه ،

(١) سبده ولبده : قليله وكثيره .

(٢) وقمه : قهره وأذله .



وسراحيه<sup>(١)</sup> وسراحيه<sup>(٢)</sup> ، وأتباع غيه ، وأشباع بغيه ،  
فأدت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غيرته ، ووصل الحبر  
بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثبات سبكاتهم<sup>(٣)</sup> ، وثبوا ، وعبوا ،  
ودبوا حتى يذبوا ، وشبوا النار ، ولبوا النار ، وقدموا  
للنزول بالدار البدار ، وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شهر  
ربيع الآخر ، فما كذب السلطان الحبر حتى صدق عزمه ، بما سبق  
به حكمه ، وسرحين أحاط بمسيرهم علمه ، وقال : قد حصل  
المطلوب ، وكل المخطوب ، وجاءنا ما نريد ، ولنا محمد الله الجدد  
الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العقيد ،  
وإذا صحت كسرتهم ، وقتلت وأسرت أسرهم ، « فطرية ،  
وجميع الساحل مادونها مانع ، ولا عن فتحها وازع ، واستخار  
الله وسار ، وعدم القرار .

وبرغم ما التزمه العهد من السجع والجناس وغيرها من  
ألوان المحسنات فقد استطاع أن يصور لنا المعركة ، والملوك  
أسرى بعد هزيمتهم ، ولكنه كان أكثر وضوحا وتأثيرا في

---

(١) الفرس السرحوب : الطويلة . ويقال : رجل سرحوب . والسرحوب :  
ابن آوى .

(٢) السرحان : الذئب .

(٣) مرض ثبات : معجر ، والسبات . النوم .

تصوير ميدان القتال بعد أن دارت الدائرة على العدو ، فصور امتلاء الأرض بجثثهم ، وما أصاب هذه الجثث من تشويه ودمار ، ثم ما كان من أمر الأسرى مقيدين في الجبال ، أو مضروبا عليهم الذلة في حراسة أحد الحراس .

أما القاضي الفاضل فكان أعظم كتاب صلاح الدين شأنًا ، وأشدّهم إليه قربًا ، استوزره صلاح الدين ؛ فكان القاضي الفاضل لسان الدولة الصلاحية ، ولهذا لا يكاد يقع حدث في هذه الدولة من غير أن يكون لقلم القاضي الفاضل مشاركة فيه ؛ فهذا القلم كانت تذيع بشائر الفتح إلى بغداد وأنحاء العالم الإسلامي ، وبه يرسل صلاح الدين إلى ملوك الإسلام يخبرهم بأبناء الحرب ، ويستنجد بهم ، بل به كان يبعث رسائله الشخصية ، ويرسل أخبار حكومته وأوامره إلى ولاته ونوابه ؛ فكان من ذلك محصول ضخّم من الرسائل هو سجل دقيق لأبناء الدولة الصلاحية .

فن رسالة كتبها إليه ، عندما قدم صلاح الدين إلى الشام يريد الجهاد . وطرّد العدو من الوطن الإسلامي ، ولكن أمورًا عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد ، قتّألم السلطان لذلك ألما شديدًا ، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عليه وقع هذا

الآلم ، ومما كتبه إليه : « وأما تأسف المولى على أوقات ينقضى  
عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها ، ويجدد العوائق  
التي لا يوصل إلى آخر جبلها ، فللمولى نية رشده . أو ليس  
الله العالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله  
لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ،  
وعن مقدور صاحيها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان  
المولى آخذاً في اسباب الجهاد ، وتنظيف الطرق إلى المداد ،  
فهو في طاعة قدامتن الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أصل  
في نجاح موعدها . والثواب على قدر مشقته ، وإنما عظم الحج  
لأجل جهده وبعد شقته ؛ ولو أن المولى فتح الفتوح العظام  
في أقل الأيام ، وفصل القضية بين أهل الإسلام ، وأعداء الإسلام ،  
لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة  
بالمرابطة والانتظار طويت » .

ومن هذه الرسالة يبدو شوق صلاح الدين إلى الجهاد ،  
وتألمه من انقضاء وقت لا يتحقق فيه استخلاص هذا الجزء  
المغتصب من أرض الوطن .

ويسجل القاضي الفاضل ما أسقطه السلطان من المكوس على  
حجاج مكة ، وتعويض أميرها عن ذلك بغلة تحمل إليه في كل

سنة ، وتعين ضياع موقوفة عليه بالديار المصرية ؛ فقد كان الرسم بمكة ان يؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد . فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدى ماعليه ، وإذا كان فقيرا لا يملك شيئا حبس ولا يترك ، ويفوته الوقوف بعرفة ، فقال السلطان : ' ' د أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ، وإن أعطيناه نبيعا استوعبها ، ولا يكون لأهل مكة فيها نصيب ، فقرر معه ان يحول إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح إلى ساحل جدة ، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للارتفاع بأثمانها ، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين ، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . ومن كلام الفاضل عن ذلك في بعض كتبه . « من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلا ، ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على نفخها وأجرها ، انقطاع المكاسب عن جدة ، وعن بقية السواحل ، ويكفى أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة ، مقيم بحجة الله في الحج ، فقد كانت النية على سقوطه مع وجود الحائل ؛ وما أكثر ما أجرى الله على يد المولى من الأرزاق ، التي تفضل عن الاستحقاق ... وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالتمسك برا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وسلمنا وحربا ، وبعدا وقربا ، وتوافهم على حماسه وهو آتق في وجه الإسلام ، ومسارعهم إلى نصرة أهليه بالأرواح

والأموال على مر الأيام ، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال ،  
ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا في التوسعة على أهله  
سعة المجال ، ... »

وقد كان لهذه المكرمة أثرها في الشعر فسجلها محمد بن جبير  
الأندلسي ، فقال من قصيدة في صلاح الدين :

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ  
يَا نِعَامَكَ الشَّامِلِ الْغَامِ

وَأَمَنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ  
فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْقَائِرِ  
وَسُحِبُ أَيَادِيكَ فَيَاضَةٌ

عَلَى وَارِدٍ ، وَعَلَى صَادِرٍ  
فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ  
وَكَمْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرٍ

وَكَمْ بِالدَّعَاءِ لَكُمْ كُلِّ عَامٍ  
بِمَكَّةَ مِنْ مُعَلِّينَ جَاهِرٍ

وَحَبِّكَ أَنْطَقْنِي بِالْقَرِيضِ  
وَمَا أَبْتغَى صِلَةَ الشَّاعِرِ

والرسالة والقصيدة ناطقتان بما قابل به العالم الإسلامي هذه  
المكرمة الصلاحية من التقدير والإعجاب وتمكين حب  
صلاح الدين في نفوس شعبه والعالم الإسلامي كله .

وفي كتاب فاضلي يصف القاضي ما كان يلاقه صلاح الدين  
من الأدعياء الذين اضطرّ إلى جهادهم حيناً ، ومسالمتهم حيناً ،  
وكان يودّه أن لو صرف جهده كله لحرب العدو الذي اغتصب  
فلسطين ، إذ يقول الفاضل من رسالة على لسان السلطان : « وقد  
علم الله أنا لهدتهم كارهون ، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي  
مصلحتهم راغبون ، ولكننا بليتنا بقوم كالفراس أو أخف عقولا ،  
وكالأنعام أو أضل سبيلا ، إن بنى معهم فعلى غير أساس ، وإن  
عدّد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس » .

وذلك يدلنا على أن صلاح الدين لم يكن الطريق أمامه ممهدا  
للوصول إلى أهدافه في توحيد البلاد ، بل كان يجد كثيرا من  
العنت من هؤلاء الذين كانوا يؤذيهم وحدة البلاد .

ويسجل القاضي الفاضل في كتاب له رحلة صلاح الدين  
إلى الإسكندرية ، وسماعه موطأ الإمام مالك من الإمام المحدث  
أبي طاهر بن عوف العالم السكندري ، فقد كتب إليه رسالة يهنئ به  
فيها بهذا السماع ، ويقول : « أدام الله دولة المولى الملك الناصر

صلاح الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة  
 أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل  
 ذخائر الخير إليه وأوصله إليها ، وأوزع<sup>(١)</sup> الخلق شكر النعمة  
 فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيذاعه ، وأودع قلبه  
 نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيذاعه ،  
 والله في الله رحلتاه ، وفي سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر  
 محجل ، والحمد لله الذي جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحارب  
 تحت قلعه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ؛ ففي الأول  
 يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا  
 لا تستر ، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداة على الضلال فيجعل  
 أثرا لا يظهر ، وقد استغرق الناس هم العلماء في رحلتهم لنقل  
 الحديث وسماعه ، والموالاتة في طلب ثقته وانتجاعه ، وصنفوا في  
 ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه ، والرفع من  
 أقدار أهله والتشويه ، فقالوا : رحل فلان لسماع سند فلان ،  
 وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان . هذا وصاحب الرحلة قد  
 نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ،  
 فلا يتجاذب عنان الكبائر ؛ فما القول في ملك خواطره كأبوابه  
 مطروقة ، وأمور خلق الله كأموال دينه به معذوقة<sup>(٢)</sup> ، إذ هاجر

(٢) حذق فلانا بكذا : اختصه به .

(١) أوزع : ألهم

إلى بقية الخير في أضيق أوقاته ، وترك للعلم أشد ضروراته ،  
 ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته  
 وساعاته . وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط للملك  
 رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون ، رحمة الله عليه ، على أنه  
 خلط زيارة نبوية بطلب ، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه  
 لسماع هذا الموطن الذي اتفقت الهمتان : الرشيدية والناصرية على  
 الرغبة في سماعه ، والرحلة لانتجاعه ، (١) وقد كان الرشيد  
 سام مالكا أن يجعل له ولولديه : الأمين والمأمون مجلسا خاصا  
 لإسماع مصنفه فقال له ما معناه : إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه  
 وسلم وغيرك من سترها ، ومثلك من نشرها ؛ فهذه رحلة ثانية  
 في الزمان ، وأولى في الإيمان ، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب  
 اليمين ، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه (٢) مقام  
 المأمون والأمين ، ... .

والرسالة شاهد صدق على حب صلاح الدين للعلم ، ورحلته  
 في طلبه ، برغم ما كان لديه من أعمال وواجبات وجهاد يتطلب  
 وقته كله .

(١) انتجع القم الكاذب : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

(٢) علي وعثمان : ولدا صلاح الدين .



وهذا كتاب فاضلي يصف ابتهاج صلاح الدين بانتصار جيشه  
على الفرنج الذين ساروا في البحر الأحمر ، ومضوا إلى جزيرة  
العرب يريدون قبر الرسول ؛ ففي شوال سنة ثمانى وسبعين  
 وخمسمائة ، فكر صاحب الكرك الفرنجي عندما توالى عليه  
الهزائم من العرب المقيمين بقلعة أيلة : (مدينة العقبة) في أن ينال  
من المسلمين ، وأن يفزوا مدينة الرسول ، فبنى سفنا ، ونقل  
أخشابها على الجمال إلى الساحل ، حيث ركبها وشحنها بالرجال ،  
 وآلات القتال ، ومضت في البحر الأحمر نحو عيذاب على الشاطئ  
المصرى ، فقطعوا طريق التجار ، وقتلوا وأسروا ونهبوا ؛  
ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، وأشرف أهل مدينة الرسول  
على خطر ، فورد الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ،  
 فأمر حسام الدين لؤلؤا قائد الأسطول المصرى أن يمضى إليهم ،  
 فذهب إلى أسطول العدو ، وأوقع بسفنه ، ثم صعد إلى بر  
الحجاز ، وركب الخيل وراء الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء  
فيه ، وأسره ، وكتب السلطان إلى الملك العادل أن يضرب  
رقابهم جميعاً ، وهذا كتاب بقلم الفاضل إلى بغداد يعلن بهجة  
صلاح الدين ، ويصف المعركة ، إذ يقول : « كان الفرنج قد ركبوا  
من الأمر نكراً ، واقتضوا من البحر بكراً ، وعمرؤا مراكب

حرية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها  
سواحل اليمن والحجاز وأنحنوا <sup>(١)</sup> وأوغلوا في البلاد ، واشتدت  
خفاة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل  
العواقب ، وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة وقد نشر مطوى  
أشراتها <sup>(٢)</sup> ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ؛ وانتظير  
غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه  
الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ؛ ورجوا أن  
تشهد البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ،  
ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج  
مقصدان : أحدهما : قلعة أيلة التي هي على فوهة ببحر الحجاز  
ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره  
بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين<sup>١</sup> ، وسلكوا طريقين ؛  
فأما الفريق الذي قصد قلعة « أيلة » فإنه قدر أن يمنع أهلها من  
مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاثلهم بنار العطش المشبوب  
الشباه <sup>(٣)</sup> . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر

(١) أنحن في القوم : بالغ وأكثر في قتلهم .

(٢) الأشرط : العلامات .

(٣) شب النار : أوقدها . والشبابة : حد كل شيء .

أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه (١) ،  
 ويأخذ تجار اليمن ؛ وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز  
 فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها  
 العظام . وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها  
 على الفرقتين ، وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين ، فأما السائرة  
 إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطة الماء ، انقضا  
 الجوارح (٢) على بنات الماء (٣) . وقذفها قذف شهب السماء ،  
 مسترقى سمع الظلماء . فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت  
 أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضة وما كاد ، أو دخل في شعب  
 وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ،  
 فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ، ومن قد علم أن أمر  
 الساعة واحدة ، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتهدت في الساحل  
 الحجازي ... فأخذت تجاراً وأخافت رفاقاً ، ودلها على عورات  
 البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، وهناك وقع  
 عليها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد إسلام  
 المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوى المهالك ، ومعاطن المعاطب ،

(١) الفج : الطريق .

(٢) الجوارح من الطير : المقترة

(٣) بنات الماء : الأملاك .

وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شللاً<sup>(١)</sup>، ويقتنصونهم أسراً وقتلاً؛ وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً، نهاراً وليلاً، حتى لم يتركوا عنهم خبراً، ولم يبقوا لهم أثراً، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ... » .

وهذه الرسالة والرسائل الأخرى التي دارت حول هذه المعركة<sup>(٢)</sup> دلت على ما امتلأ به قلب صلاح الدين من فرح بهذا النصر المبين .



وفي رسالة أخرى يوضح صلاح الدين هدفه من الاستيلاء على البلاد إذ يقول بقلم القاضي الفاضل : « فتحنا مدينة « حلب » بسلم ما كشفت بحرمها قناعاً ، وتسامنا قلعتها ... وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ، ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفرة ، فهي بيدنا بالحقيقة ؛ لأن مرادنا من البلاد رجالها ، لا أموالها ، وشوكتها ، لازهرتها ، ومناظرتها للعدو لا نضرتها ، وأن يعظم في العدو الكافر نكايتها ، لا أن تعذق بالولى المسلم ولايتها ... فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها ، ولغيرنا مغرمها ، وفي

(١) شل الايل : طردها .

(٢) راجع الروشتين ٢ : ٣٥ وما يليها .

خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا ، وفي يده مالا نضن به وهو درهمنا ، ... فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره ، وإنما استبنا فيه من يحمل عنا مئوته وبدبره ، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة ، وتمثل قوله سبحانه وتعالى : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة » .

فالهدف هو توحيد البلاد ، وجمع الكلمة لمواجهة العدو ، ولا يعنيه إلا أن تجتمع القوى المبعثرة ، والجهود المتفرقة ، وكانت العهود تبرم بين صلاح الدين وغيره من حكام البلاد الإسلامية على الاجتماع والتضافر على جهاد الأعداء .

ويؤكد النور رغبة صلاح الدين في الوحدة التي لا ينتصر المسلمون غيرها على العدو ، فيكتب القاضي الفاضل على لسانه رسالة إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول : « ذكر تسلمه حلب » وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير ، وتغور المسلمين لها الرماية ولا ضير ، ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها ، لا متحاسدة بعتوها ، ولو أن أمور الحرب تصاحبها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين ، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة ، ... والله العالم

أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ، ولا لغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش ... » .

ويؤكد صلاح الدين دائماً هذا المعنى في رسائله ، وأنه لا ينبغي سوى هذه الوحدة التي تجلب القوة وتستلزم النصر على العدو الغاصب . أما أعداء هذه الوحدة فيصفهم صلاح الدين في رسالة أخرى بعث بها إلى بغداد بقلم القاضي الفاضل ، إذ يقول واصفا نفسه ، وموازنا بينه وبينهم ، : « وإذا ولاء أمير المؤمنين نغرا لم يبت في وسطه وأصبح في طرفه ، وإذا سوغه بلدا هجر في ظل خيمة ولم يقم في ظل غرفة ، وإذا بات بات بسيف له ضجيجا ، وإذا أصبح أصبح ومعترك القتال له ريعا ، لا كالذين يُغيبون أبواب الخلافة ... وكأن الدنيا لهم إقطاع ، لا إيداع ، وكان الإمارة لهم تخليد ، لا تقليد ، وكان السلاح عندهم زينة لحامله ولا بسه ، وكان مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمآنه ولا لحابسه ، وكأنهم في البيوت دمي مصورة في لزوم جدرها ، لافي مستحسنت صورها ، راضين من الدين بالعروة اللقية ، ومن أعلى كلمته بما يسمعونه على الدرجات الحشبية ، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المهلبية ، ومن قتال الكفار بأنه فرض كفاية تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخرها ... فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون إلى أن يمتنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر ، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوهم الكافر ، فقد تولّوا الشيطان تليدا وطريفا . ووطئوا الإسلام وأهله ووطئوا عنيقا ، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان ليفيها .

وهذه الرسالة صريحة في وصف ما كان يعانيه صلاح الدين من أعداء الوحدة ، أولئك الذين لا هم لهم إلا الاحتفاظ بالسلطان ومظاهر الإمارة وحياة الترف التي يعيشون فيها ، لا ينعون أنفسهم مشقة الجهاد ، بل لا يرضون أن يقفوا موقف سلبيا فحسب ، فظاهروا أعداء الإسلام وأعانوهم . ومن ذلك يبدو أن صلاح الدين كان يحارب عدوين : الفرنج ومن يظاهروهم من أعداء الوحدة والإسلام ؛ وكان يوده أن يقضى على أولئك ؛ لكي يتفرغ لقتال هؤلاء .

\* \* \*

وقد مرض صلاح الدين فأدرك المسلمون قيمة هذا الرجل ، وعرفوا مكانه في العمل على وحدة الإسلام ؛ لكي يصمد أمام العدو من ناحية ، وليلقى بالعدو إلى البحر من ناحية ثانية ،

فلا غرو أن يتجهج النثر بعودة الصحة إليه ، وأن يبشر أرجاء  
البلاد بزوال غمة المرض عن الأمل المرجو للمسلمين ، وهذا  
كتاب فاضلي أرسل من دمشق إلى مصر يبشر بسلامة صلاح  
الدين من المرض ، ويقول : « إن العافية الناصرية قد استفاضت  
أخبارها ، وفاضت أنوارها وآثارها ، وولت العلة والحمد لله  
وأطفئت نارها ، وانجلي غبارها ، وحمد شرارها ، وما كان  
إلا قلنة وفي الله شرها ، وعظيمة كفى الإسلام أمرها ، ونوبة  
امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرها ، وما كان  
الله ليضيع الدماء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليوقف الإجابة وإن  
سدت طريقها الذنوب ، ولا يخلف وعد فرج وقد أيسر الصاحب  
والمصحوب .

نعم زاد فيه الدهر ميمًا فاصبح بعد بؤساء نعميا  
وما صدق النذير به ، لأنني رأيت الشمس تطلع والنجوم  
وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة  
جديدة ، والعزمة ماضية حديدة ، والنشاط إلى الجنة مبسوط  
البساط ، وقد اتقضى الحساب وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن  
على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يدخل في سم الحياط .  
وهذه الرسالة ناطقة بالبهجة التي استولت على النفوس



عندما استرد السلطان عافيته وصحته ، وبما كان المسلمون يشعرون به إزاء مرض صلاح من فداحة الأمر وشدته . وأنه « عطيمة كفى للإسلام أمرها » ، وأن الابتهاج بالصحة إنما كان لأجل استئاف الجهاد ضد أعداء البلاد . ولذلك بدا بعودة الصحة النشاط إلى الجهاد ، حتى كادت السيوف تهتز في أنعامها .

\* \* \*

وكانت كتب القاضي الفاضل تحمل إلى أرجاء العالم الإسلامي أنباء المعارك التي يخوضها صلاح الدين .

وقد استطاع هذا الكاتب أن يعبر عن عواطف صلاح الدين إزاء الفتوح التي قام بها ، وأنها عادت على الإسلام بنشر كلمته ، وعلى بلاد الشام بنشر السلام بين ربوعه .

كما دلت على أن صلاح الدين كان بعيد النظر يؤمن بأن العدو يعد العدة ، ويحشد الجموع ليلتقي بصلاح الدين في معركة يستعيد بها ما فقده من أرض كان يفتصبها ، ولذلك لم يغفل السلطان عن حشد الجيوش استعدادا لهذا اللقاء المنتظر .

وأحب أن أختم هذا الفصل بتلك الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل في ساعة موت الساطان ، وبعث بها إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وفيها يقول :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . إن زلزلة الساعة  
 شيء عظيم . كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن  
 الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الحلف للمالك المرحوم  
 وأصحابه ، وقد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، وقد حفرت  
 الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ وقد ودعت أباك  
 ومخدومي وداعا لا تلاقى بعده ، وقد قبلت وجهه عنى وعنك ،  
 وأسأمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضيا عن  
 الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وبالباب من الجنود المجندة ،  
 والأسلحة المغمدة ، مالا يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ؛ وتدمع  
 العين ويخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا عليك  
 يا يوسف لمحزونون ؛ وأما الوصايا فما يحتاج إليها ، والآراء فقد  
 شغلني المصاب عنها ؛ وأما لأئح الأمر فإنه إن وقع اتفاق  
 فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب  
 المستقبل أهونها موته ، وهو الهول العظيم . والسلام » .

وفي هذه الرسالة يبدو ما نزل بالمسلمين من فجعة مبهلة  
 عند موت صلاح الدين ، حتى لكأن الأرض قد زلزلت زلزالها ،  
 وقد أودع القاضي الفاضل كل عواطفه وإحساساته في هذه القبة  
 على جبين الراحل الكريم ؛ كما يبدو في الرسالة غير الكاتب

على دولة صلاح الدين بعد وفاته ، وجهه في ان يظل الإخوة  
مجتمعي الكلمة ، حتى تصبح الدولة لهم ، ولا يتمزق شمل هذه  
الإمبراطورية التي وضع أساسها والدم العظيم .

وكما حزن القاضي الفاضل على فقدان صلاح الدين أبدى  
ابن شداد ألمه لذلك عندما استعار لسان أبي تمام عندما قال :  
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام  
لأنه كان - رحمه الله تعالى - من محاسن الدنيا وغرائبها ،  
كما قال صاحب النجوم الزاهرة ؛ ولا تزال ذكراه إلى اليوم  
حية في القلوب ، محبة إلى النفوس .

\* \* \*

وبعد ، فقد احتفل الشعر والنثر بصلاح الدين ، ووجد فيه  
الأمل الذي تتطلع إليه البلاد الإسلامية ، لكي تسترد على يديه  
جزءا مسلوبا من وطنها الحبيب ، ورأيا فيه إنسانا نموذجيا في  
طباعه وأخلاقه ، فسجل له هذه الطبائع والأخلاق ، ومجدا فيه  
السمو الخلقي والتبيل النفسى . ووقفوا إلى جانبه يتبعان خطواته ،  
ويباركان ما يقوم به من الجهود في سبيل الوصول إلى تحقيق  
هدفه الكبير .

وكانت السمة البارزة من بين سماته الجليلة سمة الجهاد وجهه

والإقبال عليه يريد الا يصرفه عنه صارف ، فاستغرق ذلك كثيراً مما قرضه الشعراء ، وما دججه الكتاب ، فكتب ابن شداد معظم صفحات كتابه في وصف ذلك الجهاد وتصوير المعارك ، وألف العماد كتابه : الفيح القسى في الحديث عن وقائع صلاح الدين ، وشغل ذلك الجهاد كثيراً من رسائل القاضى الفاضل .

وإذا كان لنا أن نفرق بين الشعر والنثر اللذين دارا حول صلاح الدين فإن لنا أن نعد الشعر كله تصويراً لعواطف الشعب نحو صلاح الدين ، فقد ترجم الشعراء عن هذه العواطف ، ودار الكثير من أبيات قصائدهم على السنة الناس يعبرون بها عما يحول في نفوسهم نحو بطاهم المحبوب .

أما النثر فنه ما كان صدى لإعجاب الناس بصلاح الدين ككتابي ابن شداد والعماد ، فكان نثراً كالشعر مليئاً بالعواطف من كاتبيه . ومنه ما أبان عن عواطف صلاح الدين إزاء الأحداث التى مرت به فى حياته المباركة ، وعن آرائه فيما انتهجه من سلوك وخطط ، كما نرى ذلك فى رسائل القاضى الفاضل ؛ فقد كان يعنى ببيان وجهة نظر السلطان فيما تم على يديه من أعمال . ولذلك كان على المؤرخين أن يرجعوا إلى هذه الرسائل ؛

ليتبنوا فيها الدوافع التي جعلت صلاح الدين يتجه اتجاهها معنا ،  
ولا سيما أن القاضي الفاضل كان لسانه منذ ولى الوزارة للعاقد  
إلى أن مات .

وكثيراً ما اشترك الشعر والنثر في موضوع واحد ؛ فنستطيع  
أن نرى في الشعر صورة الشعب و عاطفته إزاء صلاح الدين  
عندما تم ذلك الحدث ؛ ونستطيع أن نرى في نثر القاضي الفاضل  
عاطفة صلاح الدين ورأيه إزاء ذلك الحدث نفسه .

ولا نأخذ على هذا النثر إلا أنه كان كمنثر عصره يعنى  
بالصناعة كلما أمكنه ذلك ، ويجد الجمال الفني في انتقال الجمل  
بالحلى وألوان الزخارف ، مما يتطلب الريث والتحليل في قراءته  
أحياناً لكي يصل الإنسان إلى معناه . ولكنه برغم ذلك أدى  
رسالته يومئذ ، وكان لهذا النهج الصناعي في ذلك الوقت أثره  
في نفوس الناس ، ونستطيع اليوم أن تبين ما كان الكتاب  
يريدون أن يدبجوه في لغة يذللون في أناقتها كل ما يملكون .

## المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة  
فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلبه من:

- ١ - دار القلم ..... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار ..... في الإقليم المصرى
- ٣ - وكلاء الشركة القومية ..... في جميع البلاد العربية
- ٤ - مكتبة المنفى ..... بغداد - العراق



## المكتبة الثقافية

- ♦ أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة •
- ♦ تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جبع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب •
- ♦ تصدر مرتين كل شهر • في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الحب الإلهي  
في التصوف الإسلامى  
للدكتور محمد مصطفى حامى  
أول نوفمبر ١٩٦٠

Bibliotheca Alexandrina



0276714